اليكس ميكشيللي

الهوية

ترجمة د. علي وطفة

الهوية

اسم الكاتب

ALEX MUCCHIELLI

العنوان الأصلي للكتاب **L’identité**

صادر عن دار النشر الفرنسية: **Presses universitaires de France**

الطبعة العربية الأولى
حقوق النشر محفوظة
١٩٩٣

تنفيذ دار الوسيم للخدمات الطباعية

دمشق ــ هاتف: ٨٨٩٤٠٧ ص . ب (٤٩٧٤)

تصميم الغلاف : عوض عمايري

اليكس ميكشيللي

الهوية

ترجمة

د. علي وطفة

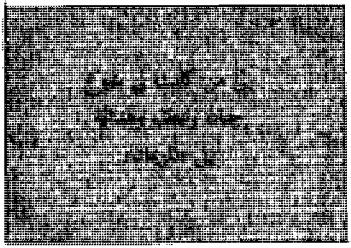

توطئة :

يطلق مفهوم الهوية على نسق المعايير التي يُعرَف بها الفرد ويُعرّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة.

ويُعد مفهوم الهوية من المفاهيم المركزية التي تسجل حضورها الدائم في مجالات علمية متعددة ولا سيما في مجال العلوم الانسانية ذات الطابع الاجتماعي. ويعد بالتالي من أكثر المفاهيم تغلغلاً في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية، ومن أكثرها شيوعاً واستخداماً.

وعلى الرغم من البساطة الظاهرية التي يتبدى فيها مفهوم الهوية فإنه وعلى خلاف ذلك يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشاكلة وذلك لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته.

فالهُوية ليست كياناً يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد. إنها حقيقة تولد وتنمو، وتتكون وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب.

عندما شرع الانسان يبحث في كينونته وذاته ليحدد هويته سقط في دوامات الثنائيات الساذجة اللامتناهية: فالانسان جسد وروح،

الانسـان عقل وشهوة، الانسـان مادة ووعي، تلك هي بعض الثنائيات المقترحة التي انطلق منها الانسان لادراك نفسه ووعي ذاته.

وإذا كان مفهوم الهوية الانسـانيـة يكـافـىء من حيث المبدأ الوجود الانساني عينه، فإن المشكلة تكمن في تحديد طبيعة الجدل الذي يربط بين هذه الثنائيات اللامحدودة. وتكمن الصعوبة إذن في ادراك وشـائج الوحدة التي تربط حقاً بين هذه الثنائيات المعروفة. لأن الانسان وحدة لا انفصام فيها وهي الوحدة التي تشكل منطلق الهوية والشعور بها. وهنا بالتالي تكمن اشكالية الكينونة الانسانية في مدار تشكّلها ، وفي مساق نموها ، وفي مسارات تكاملها.

وإذا كانـت الهوية حقيقة تنمو وتتكامل وتنضـج، إذا كانـت حقيقة وجودية تنطوي على عوامل وجودها، وبذور نمائها فإنها ، وذلك هو منطق الأشياء تنطوي على بذور فنائها وانشطاراتها. حيث تتعرض وبفعل عوامل متعدده تربوية واجتماعية وثقافية للتشويه والانكسار.

ولا يمكن لنا هنا بأي حال أن نجهل أو أن نتجاهل أهمية العملية التربوية في ايجاد شخصيات عصابية وهويات لا تماسك فيها، وخاصة في مرحـلة الطفولة ومراحل حيـاة الانسـان الحرجة: المـأزق الأوديبي عند فرويد، ومرحلة البلوغ والمراهقة، ومرحلة الفطام عند الطفل.

وجميل أن يشار هنا إلى أهمية التربية التي تقوم على أساس الحب والحنان في بناء هويات متماسكة ومرنة. لأن الافتقار إلى الحب والحنان في مرحلة الطفولة يؤدي إلى تشظيات الهوية وانشطاراتها.

إذ كانـت الهوية توجد في خضم علاقات اجتماعية وثقافية متداخلة

فإنها أيضـاً تتجلى في صيغ وترتسـم في آشكال متعددة، وتتنوع بتنوع نشاطات الفرد المهنية والسياسية والثقافية والفكرية، وتتعدد بتعدد المواقف السيكولوجية.

وجميـل هو القول، هنـا على تخوم النهـاية، بأن هذا الكتـاب يبحث في الهوية، ويحاول أن يستجلي مفـاهيمهـا وأصولها ومراحل نموها ومحاور أزماتها، وفق منهج يتميز بالأصالة والدقة والموضوعية، ووفق أسلوب لغوي يغـلب عـليـه طـابع البســاطـة ممـا يجعـل معطيـاتـه في متنـاول عـامة الناس ومتخصصيهم. وإذا كان هذا الكتاب يتناول الهوية في بنيتها، وفي عوامل وجودها، ومعطيات نموها، فإننا وجدنا فيه حاجة للقارىء العربي فقررنا اخراجه باللغة العربية ووضعه في متناول من تعنيه مسـألة الهوية، وذلك أملاً منا في خدمة انسان العروبة، واغناء المكتبة العربية بمعطى من معطيات الفكر العالمي الأصيل، حول مسألة الهوية وقضاياها.

والله ولي التوفيق

د. علي وطفه

مقدمة

يوظف مفهوم الهوية، في مجال العلوم الانسانية، كمفهوم شمولي على نحو متزايد وفقاً لدلالات مجازية بالغة التنوع.

وإزاء هذه الإشكالية تتبدى ضرورة العمل على شرح ذلك المفهوم وتحديده عبر دراسة تحليلية لعناصره المكونة، وذلك إذا أريد له حقاً أن يصبح مفهوماً اجرائياً. وانطلاقاً من ذلك يتحدد هدف هذا الكتاب في تطوير مناحي تعريف الهوية ودمج ذلك المفهوم في شبكة التعريفات الاجرائية المحددة.

سنعمل في هذا المنحى على تعريف نماذج متعددة لمفهوم الهوية مثل: الهوية الموضوعية، والهوية الذاتية، والهوية الوثقى، والهوية الحاضرة، والهوية الاجتماعية، ثم الهويات السلبية والتفاضلية.

سنرى في رحاب هذا الكتاب ان هوية الفاعل الاجتماعي هي أكثر من مجرد قائمة مرجعية خارجية من السمات التي تسمح لنا بالإجابة عن السؤال التالي: «من ذلك الفاعل الاجتماعي» ؟ وهنا يتوجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار، إلى جانب العوامل المادية، الجوانب النفسية والثقافية

والعوامل الاجتماعية، وذلك لأن الفاعل الاجتماعي «الانسان» لا يوجد في فراغ بل ينطلق من حياة داخلية ويأخذ وضعيته في اطار علاقات اجتماعية.

إذ يتوجب علينا من أجل أن ندرك هوية ما: فردية كانت أم جماعية أو ثقافية أن نعرف نواة هذه الهوية (Noyau Identitairé) وهذا يعني ينبوع التماسك الداخلي الغائي الذي يسم كل كائن اجتماعي يتميز بوجوده الخاص.

وجدير بالذكر أنه لا يمكن لنا تعريف هوية كائن اجتماعي ما من غير العودة إلى الشعور بالهوية الذي يوجد وبشكل طبيعي في وعي الكائنات العاقلة.

وفي النهاية فان دراسة مراحل تكون المشاعر البنائية للشعور العام بالهوية (الشعور بالوجود المادي، والانتماء، والاستمرارية الزمنية، والشعور بالتمايز، والاستقلال، والثقة، والوجود..) ستسمح لنا بتحليل عوامل أزمات الهوية والتي يمكن لها أن تلامس مختلف الكائنات الاجتماعية.

المؤلف

Alex Mucchielli

الفصل الأول

أسس الهوية

وذلك دون توقف . ومن شأن ذلك تعزيز اتجاهات الرفض نحو الطفل الذي ينظر إليه من قبل العائلة كعبء لا يحتمل حيث يتوجب عليه أن يعنى بنفسه .

إن التوجه نحو الحياة من غير اطفال يشكل إحدى المنطلقات الأساسية لانخفاض نسبة الولادات في الغرب . حيث يلاحظ أن الأسرة تقتصر على طفل أو طفلين بالدرجة الأولى . وذلك لأن عمل الأبوين يطرح اشكالات تربوية معقدة خاصة بالأطفال . وهنا لا بد من وضع الطفل عند مرضعة أو في دار الحضانة أو في رعاية الوالدين . ومن أجل حماية الوضعية المهنية طرحت حلول عديدة . ولقد لاحظنا سابقاً كيف تؤدي عملية اقصاء بعض الجماعات الاجتماعية إلى انعدام الاحساس بالأمن الخاص بالهوية ، والذي من شأنه أن يعزز من مظاهر النزعة العدوانية وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بهوية ذات طابع سلبي وذلك تحت تأثير الوسط الاجتماعي .

الهدم العاطفي :

كما بينا سابقاً يمكن للأذى العاطفي أن يؤدي إلى تربية مجحفة وخاصة في إطار الأسر المتسلطة . ويمكن أن نجد ذلك في إطار التربية الكيبوتنتز (Kibboutntize) . كما يمكن ملاحظة ذلك على المستوى المهني عند العمال الذين تعرضوا لعملية استلاب بتأثير ظروف عملهم الشاقة .

الهوية مركب من المعايير، الذي يسمح بتعريف موضوع أو شعور داخلي ما. وينطوي الشعور بالهوية على مجموعة من المشـاعر المختـلفة، كالشعور بالوحدة، والتكامل، والانتماء، والقيمة، والاستقلال، والشعور بالثقة المبني على أساس من ارادة الوجود.

سنحـاول فيما يلي أن ندرس مرجعيات الهوية، ونتفحص أصولها المختـلفة وذلك على المستويات: الفردية، والجماعية والثقافية. وفي النهاية ستكون لنا وقفة نُعرّف فيها الشعور بالهوية ونحدده.

I ـ مرجعيات الهوية:

يمكن القول، في البداية، ان الهوية مجموعة من السمات التي تسمح لنا بتعريف موضوع معين. وبناء على ذلك فان التحديد الخارجي للهوية يكون بالبحث عن هذه السمات وتحديدها.

فهناك بعض المجالات التي لا يطرح فيها تعريف هوية الأشياء أية

مشكلة أو صعوبة. وتلك هي حالة الأشياء المادية والفيزيائية عموماً. إذ تتحدد هوية مركب كيميائي بالعناصر الأوليّة المكونة له، وبالعلاقات الأساسية التي تقوم بين هذه العناصر، وبالبنية التنظيمية الخاصة بالمركب. وبالاستناد إلى بعض خصائصه الأساسية مثل: الرائحة والطعم الخ، وانطلاقاً مما يطرأ على ذلك المركب من تغيرات وذلك عندما يوجد في وضعية أو وسط مباين لوسطه الطبيعي. وبناء على ذلك كله يمكن تحديد هوية سفينة حربية بالاستناد إلى مجموعة من السمات التي تميزها مثل: العام الذي دشنت فيه، قوة المحركات، حجم الحمولة، عدد فريق العمل، عدد البحارة، نوع السلاح، الدقة في الاصابة، وضع السفينة داخل الأسطول الخ.... ويمكن للقائمة الخاصة بالسمات المميزة أن تكون أكثر تعدداً ووفرة.

وعلى خلاف ما تبين لنا أعلاه ليس من السهولة بمكان تحديد هوية الأشياء في مجال العلوم الطبيعية ولا سيما في مجال العلوم الانسانية. وتعود صعوبة التحديد إلى التنوع الكبير في العناصر الأولية المكونة للمسائل الاجتماعية، وهي في أغلبها مفاهيم تنطلق من التجربة المعاشة، ومن نسق التصورات والأنماط السلوكية المتنوعة. ويضاف إلى ذلك حالة الفعاليات الداخلية الخاصة بالموضوع المراد تحديده، وهي التي تفسح مجالاً واسعاً للدراسات والمناقشات العلمية الجادة.

عندما نريد تعريف هوية طفل ما، فان ذلك يتطلب منا أن نواجه مجموعة من الخيارات اللانهائية الخاصة بالمعايير المحددة للهوية مثل: العمر، الجنس، المقاس، الوسط العائلي، الوسط الثقافي، الوسط المدرسي، الاتجاهات، الاهتمامات، العادات، العقد النفسية، العلاقات العاطفية،

لنشــاطات الرياضيــة، وردود الفعـل الخاصــة به.. وعندما نريد أن نعرِّف وسطه العائلي فقط فإن ذلك يضعنا أيضاً أمام اشكالية التحديد حيث يتطلب ذلك استقصـاء عدد من المفاهيم السيكلوجية والسوسيولوجية. وينسحب ذلك على جملة الهويات الفرعية للهوية المعنية بالتحديد مثل: نظام العلاقات، والنظام السيكولوجي الخاص بالسمات الخ...

وغني عن البيان أنه لا يمكن لنا أن نسرد قائمة السمات الأساسية الخاصــة بالهوية، سـواء أكان ذلك في مجال الفـيزياء أم في مجال العلوم الطبيعية أو في حقل العلوم الانسانية. إذ تبين التجارب أن هناك تجدداً في ظهور وضعيات وعناصر جديدة تكون أكثر أو أقل أهمية عند التحديد والتعريف.

ومن أجـل تعـريف موضــوع مـا يكفينــا أن نعدد بعض سماته الأساسية، وعندما يتوجب علينا أن نقدم تعريفاً أكثر دقة يجب علينا أن نستوفي السمات الأسـاسية التي تسمح بالتمييز بين الموضوع المراد تعريفه والموضوعات الأخرى التي تجانسه بدرجة كبيرة.

فالسمات المطـلوب تحديدها مرهونة إلى حد كبـير بدرجة الدقة المطـلوبة في تعريف الموضوع المعني. وذلك لأن أي تعريف يتم في اطار معرفي أو برغماتي. ولذلك فإن قائمة السمات المطلوبة تتحدد وفقاً لدرجة الاستخدام المطلوب أو الدقة المنشودة للشيء المراد تعريفه.

ومن هذا المنطـلق يمكن لكل سمة من السـمات المعيّنة أن تُعرَّف هي أيضاً، وذلك يعني أن لكل سمة خصوصية تعرف بها فالأمواج الصوتية التي يصدرها محرك السفينة لها خصوصية تميزها عن هذه التي توجد في صوت

الانسان، والتي تسمح لنا بالتعرف على السفينة أو على الانسان المعني.

إن تعريف موضوع ما يتطلب معرفة محددة بخصائصه. فهناك مجموعة من الأشياء المتماثلة التي تنطوي على خصائص متجانسة. ولذلك يمكن للانسان أن يكتفي بتحديد منظم يدل على معطيات التجانس في الأشياء. ويتم ذلك من خلال نموذج يشتمل على جملة من العناصر المنظمة في اطار كل واحد متكامل. ويسمح لنا مثل ذلك النموذج أن نمايز بين أشياء متباينة وخاصة هذه التي تعنينا بشكل مباشر.

ويمكن لنا القول في هذا الخصوص ان التحديدات التي تنطلق من معايير نموذجية تسمح لنا، عبر شبكة متقاطعة من الوحدات الأساسية، أن ندرك سريعاً العناصر التي تشكل وحدة الهوية.

فالتعرف على الآخر عند الانسان، كما هو الحال عند الحيوانات، يحدث عفوياً، وفي سياق فئوي ينطوي على اشارات خاصة. ويصدق ذلك عندما نتحدث عن الهوية الاجتماعية وعن أسس الهوية التي تتمثل في نسق من الرموز ذات الطابع الادراكي والتي تتصل بالهويات الخارجية.

فئات العناصر الخاصة بالهوية:

إن تحديد هوية مجتمع، أو جماعة، أو فرد، يقتضي العودة إلى جملة من العناصر، التي يمكن تصنيفها في المجموعات التالية:

أولاً: عناصر مادية وفيزيائية وتشتمل على:

١ ــ الحيازات: الاسم، الآلات، الموضوعات، الأموال، السكن، الملابس.

٢ ــ القدرات: القوة الاقتصادية، والمالية، والعقلية.

٣ ــ التنظيمات المادية: التنظيم الاقليمي، نظام السكن، نظام الاتصالات الانسانية.

٤ ــ الانتماءات الفيزيائية: الانتماء الاجتماعي، والتوزعات الاجتماعية، والسمات المورفولوجية الأخرى المميزة.

ثانياً: عناصر تاريخية وتتضمن:

١ ــ الأصول التاريخية: الأسلاف، الولادة، الاسم، المبدعون، الاتحاد، القرابة، الخرافات الخاصة بالتكوين، الأبطال الأوائل.

٢ ــ الأحداث التاريخية الهامة: المراحل الهامة في التطور، التحولات الأساسية، الآثار الفارقة، التربية والتنشئة الاجتماعية.

٣ ــ الآثار التاريخية: العقائد والعادات والتقاليد، والعقد الناشئة عن عملية التطبيع أو القوانين والمعايير التي وجدت في المرحلة الماضية.

ثالثاً: عناصر ثقافية نفسية:

١ ــ النظام الثقافي: المنطلقات الثقافية، العقائد، الأديان والرموز الثقافية، والايديولوجيا، ونظام القيم الثقافية، ثم أشكال التعبير المختلفة (فن، أدب).

٢ ــ العناصر العقلية: النظرة إلى العالم، نقاط التقاطع الثقافية، الاتجاهات المغلقة، المعايير الجمعية، العادات الاجتماعية.

٣ ـــ النظـام المعرفي: السمات النفسيـة الخاصـة، اتجاهات نظام القيم.

رابعاً: عناصر نفسية اجتماعية:

١ ـــ أسس اجتماعية: اسم، مركز، عمر، جنس، مهنة، سلطة، واجبات، أدوار اجتماعية، نشاطات، انتماءات اجتماعية.

٢ ـــ القيم الاجتماعية: الكفاءة، النوعية، التقديرات المختلفة.

٣ ـــ القدرات الخاصـة بالمستقبـل: القدرة والامكانية، الاثارة الاستراتيجية، التكيف، نمط السلوك.

عندما يريد فرد ما أن يعرّف نفسه، أو الجماعة التي ينتمي إليها، أو هوية شخص آخر، أو جماعة ما، يجب عليه أن يختار بعض السمات الموجودة في الفئات السابقة. ويلاحظ في سياق ذلك أن التعريفات التي تشتمل على السمات السابقة كافة هي تعريفات نادرة جداً. ويعود ذلك إلى عدم توفر جميع المعلومات الضرورية الخاصة بموضوع التعريف.

ومع ذلك فإنه لمن المؤكد أن تعريف هوية موضوع ما يجب أن ينطلق من المعايير المذكورة سابقاً. وتعد هذه المعايير بحق كافية لتحديد هوية جماعة أو فرد وذلك بالقياس إلى جماعة أو فرد آخر. وذلك يعني أنه يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار عندما يراد تعريف موضوع ما، السمات الأساسية المتجانسة من جهة، والسمات الخاصة التي يمكنها التأكيد على خاصة التمايز من جهة أخرى.

ويمكن لنا أن نحدد المجموعة الأولى من السمات الأساسية على النحو التالي:

الهوية المادية وتشمل على:

١ ــ المورفولوجيا: السمات الفيزيائية.
٢ ــ الملكية: موضوعات وأشخاص وخصوصيات مختلفة.
٣ ــ التنظيم: بنية الأشياء وتناسقاتها.

الهوية الخاصة وتنطوي على:

١ ــ الأصول والماضي: الولادة، التاريخ الخاص وآثاره.
٢ ــ الوضعية الحالية: الاسم، موقع الشخص من الآخرين، السلطات، الواجبات.
٣ ــ نظام القيم والسلوك الخاص: السمات الخاصة والسلوك الخاص، المثيرات، الاهتمامات.
٤ ــ القدرات الخاصة: الكفاءات، النتائج، النشاطات.

الهوية الاجتماعية وتتضمن:

١ ــ صورة الهوية في منظور الآخرين، النماذج، آراء الآخرين.
٢ ــ الانتماءات: الجماعات الثنائية، جماعات الانتماء (عمر جنس، مهنة رياضية، نشاطات).
٣ ــ الرموز والاشارات الخارجية: كل ما يمكن له أن يأخذ مكاناً

في اطار التسلسل الاجتماعي.

ويلاحظ في اطار ما سبق أنه لمن الممكن تصنيف بعض العناصر الخاصة بالأطر المرجعية للهوية: مثل ملكية السيارة من نوع ما أو ماركة ما. فالسيارة ملكية في واقع الأمر، وهي اشارة خارجية تبين المكان الذي يحتله الشخص داخل سلم الفئات الاجتماعية. وهي أداة تشير إلى القدرة الخاصة على التنقل من مكان لآخر. ويمكن بالاضافة لذلك أن تشير إلى نمط الأفكار التي تميز صاحب السيارة وتحدد اتجاهه.

إن فئات التصنيف المذكورة سابقاً ليست نهائية ولا يمكن لأحدها أن يوجد مستقلاً عن الآخر. وبناءً على ذلك فإن نسق المعايير، الذي يعوّل عليه في تحديد هوية ما، يعمل كنظام متكامل إذ تتداخل عناصره جميعاً من أجل تحديد دلالة كل عنصر من عناصره الخاصة.

يستدعي اسم جماعة ما، على سبيل المثال، عدد وقوة أفراد الجماعة، كما يستدعي رموز الجماعة واساطيرها وتاريخها وعاداتها، ويشتمل هذا التداعي أيضاً على قوانينها وبنيتها الاجتماعية وعقليتها والعلاقات التي تربط الجماعة مع الجماعة الأخرى المجاورة وأخيراً روابط الجماعة ومكان اقامتها.

أمثلة مرجعية لتحديد هوية الجماعة:

تتحدد الهوية الجماعية في اطار تنظيم متكامل، وتمثل وحدة كلية تشتمل على عناصر متقاربة ومتكاملة لتشكل عبر ذلك كله حقيقة اجتماعية تنطوي على العناصر التالية:

البيئة الحيويّة:

وتشتمل على خصائص الوسط والشروط التي تغطي نشاطات الجماعة المعنية مثل: الحدود، الموقع، الوضعية الجغرافية، الوضعية الجيولوجية، المناخ، النباتات، الحيوانات، الطبوغرافيا، البحار، التربة، اللباس، حالة السكن، التنسيق والتنظيم الداخليان، أساليب الاتصال، التغيرات الملموسة، التحولات الجارية داخل الوسط الحياتي.

وتتضمن البيئة الحيوية هذه جملة تأثيرات الوسط: اشباع الحاجات، الحرمان والكبت، الأهداف، عناصر التنظيم الاجتماعي، الطقوس والسلوك الخاص، الذهنية، العلاقات النموذجية للجماعة مع وسطها الحيوي.

التاريخ:

يشكل تاريخ الجماعة منطلقاً لتحديد هويتها، إذ تتجذر هوية الجماعة في تاريخها. ويبرز تاريخ الجماعة وآثاره في صيغ مكتوبة كما يتجلى في تقاليد الجماعة، وأساطيرها وحكاياتها. وينطوي ذلك التاريخ أيضاً على الأحداث الفردية والجمعية وعلى صورة أبطالها التاريخيين، كما يشتمل على صورة الحياة السياسية للجماعة وآثارها، وعلى تقييم لأهمية تاريخ الجماعة الجمعي وأثره على تنظيم الوسط الحيوي. والبنية الديمغرافية والنشاطات الراهنة، والبنية الاجتماعية، وأخيراً الآراء، الاتجاهات، المعايير السلوكية، وموروثات الماضي.

الديموغرافيا:

وتشتمل على عدد أفراد الجماعة وتوزعاتهم وفقاً للجنس والعمر والنشاط، ووفقاً لفئات النشاطات الاقتصادية والمهنية، وأنساق القرابة، كما تشتمل على التغيرات التي تحصل داخل النظام السكاني على مستوى الفصول والدورات السكانية. ويضاف إلى ذلك، نسبة الوفيات والخصوبة والعقم وحالة المنازل العائلية. ويتضمن هذا الجانب أيضاً على توزعات الجماعة في المكان وعلى نظام العلاقات الاجتماعية: الهجرة والهجرة المعاكسة، والزواج الداخلي، والخارجي، ونمط المدارس، وتوزع الولادات داخل الفئات الاجتماعية والعمرية، ثم توزع الأجانب، والمستوى الصحي، وحركة السكان داخل الأقاليم.

النشاطات:

ويتضمن ذلك الجانب النشاطات الاقتصادية أو غيرها من النشاطات المختلفة، وعلى توزع هذه النشاطات وفقاً للسكان والتنظيمات الاقتصادية المختلفة والتجهيزات الفنية في مجال الزراعة والصناعة والسياحة والثقافة، وخطة المدخلات والمخرجات الاقتصادية، والميزانيات الاقتصادية، وحركة العلاقات القائمة ومستوى الاستهلاك.

هذا ويمكن بناء منظومة من المؤشرات الاقتصادية حيث يمكن تحديد مستوى الازدهار الاقتصادي، والتبعية الاقتصادية، ودرجة التطور الحديث، ومستوى التوجه نحو الابداع... ويشتمل أيضاً على النشاطات الدينية، والاستعراضية، وأنماط الحياة: السلوك النموذجي الخاص

بـالجمـاعـات الفرعيـة، والأحداث المميزة للحيـاة الجمعيـة وأشكـال الهيجانات الشعبية، والاتجاهات الأساسية... ويشار هنا أيضاً إلى اللغة وما تشتمل عليه من مفردات وإلى الصيغ اللغوية، والتحولات اللغوية، والابداعات الجمالية، كما يشار أيضاً إلى واقع التكامل الذي يتم بين هذه العوامل من جهة ،العلاقات مع المؤشرات الخاصة بالفئات الكبرى التي تشتمل على أسس الهوية ومعاييرها.

التنظيم الاجتماعي:

ويشتمـل هذا الجـانب على التنظيم الرسمي ويتضمن: الوظـائف، القوانين، الاجراءات، نظـام اتخاذ القرارات، اتجاهات المشـاركة، نظـام التقييم الرسمي ونظـام التعويضـات، ودورات المعلومات، وإجراءات معالجة المعـلومات ونشرها، ثم عملية تخزين المعلومات، ونمط السلطة، ووظيفة الاتصالات الجارية، وأنظمة الأدوار، وتبيان الأدوار، والتباعد بين الأدوار، والآثار المتوقعة لأنظمة الأدوار. وينطوي أيضاً على دراسة الصراع وتحليل التداخلات والأحداث النموذجيـة، ثم دراسـة المسـافة الاجتماعية داخل الجمـاعـة: علاقات التجـاذب والتنـابذ والترابط، وشبكـات التعـاون، ومستوى التدرج الاجتماعي الداخلي، ونمط الزعامات القائمة.

الذهنية La mentalite:

يمكن ارجاع السمات الأساسة الخاصة بتعريف الذهنية إلى نسق المعلومات الأخرى، ويشتمل ذلك على تحليل لمحتوى كل أشكال التعبير

الجمعي الذي يسمح بتعريف العناصر البنائية للعقلية. وهناك دراسات تسمح بتفسير الرموز ومعايير السلوك، كما تسمح بمعرفة النماذج المضادة والتصورات الجمعية، وأنظمة الآراء والعقائد، والاتجاهات نحو المسائل المعقدة المعنية بالتعريف. وأخيراً يشتمل هذا المستوى على تقويم ذاتي للقدرات الخاصة (وهي التي تشكل جزءاً من صورة الذات).

وانطلاقاً من هذه المعايير والعناصر المختلفة يمكن تحديد الاتجاه العام للذهنية الجمعية، وهي العناصر التي تنظم إلى حد كبير بين مجموعة من النشاطات الأخرى وتمنحها دلالتها ومعناها، وذلك في حدود علاقتها بالوسط الذي توجد فيه. إذ تنتظم حياة الجماعةحول نشاطات أساسية وحول اهتمامات مركزية وتصورات مغلقة، كما تنتظم حول أنماط الحياة الخاصة المطلوبة والتي تتوافق مع الأسس المرجعية المذكورة أعلاه.

وانطلاقاً من ذلك كله، تشكل أسس اله‌وية، كما سنرى لاحقاً أنظمة ادراكية وتقويمية، وتنعكس كصدى للحياة والسلوكات الجمعية. وغني عن البيان أن هذه الأنظمة تتجسد في بنى سيكولوجية ثقافية، ومن هنا يمكن الاستدلال أيضاً على وجود هذه الأنظمة عند الفرد وفي داخل الجماعة والمجتمع وسنعمل لاحقاً على وصف متدرج ومنسق ومتتابع لمنطلقات الهوية على المستوى الاجتماعي والجمعي والفردي من خلال الأنظمة الثقافية والذهنية والمعرفية القائمة والتي تشكل أسس الهوية ومنطلقاتها.

II ـ نواة الهوية الثقافية:

الثقافة (La culture)

حال الثقافة ،كما يقول بينديكت (R. Benedict) :كحال كاللغة، إذ يمكن أن ندرك الثقافة بنفس الطريقة التي ندرك بها اللغة. إذ تشتمل الثقافة على قواعدها الخاصة وصيغها المختلفة. وهي كاللغة لأنها تنطوي في ذاتها على صور ادراكية للعالم والكلمات. وهي أيضاً كالرموز الثقافية إذ تشكل فئات ادراكية متقطعة للعالم الخارجي.

يأخذ المفهوم العام للثقافة طابع الشمولية على نحو واسع. ويشتمل في اطار عموميته هذه على الغايات المطروحة والمعلنة. فالثقافة في واقع الأمر كلٌّ مكتسب مشترك بين أفراد الجماعة. وتشتمل أيضاً على كل أشكال التعبيرات المختلفة والفعاليات المتنوعة التي تنبثق عن النظام المعرفي المكتسب.

تشتمل الثقافة في صيغتها الانتربولوجية، على منظومة العقائد والمعايير والقيم والتصورات المشتركة والعادات والأخلاق، كما تشتمل على

مختلف موضوعات الحياة اليومية والقيم الجمالية وتعبيراتها...

ولا بد لنا هنا من النظر إلى الثقافة في جوانبها السيكولوجية. فالثقافة كل مكتسب من المبادىء الثقافية (عقائد ـــ معايير ـــ قيم)، والتصورات الجمعية، والنماذج والرموز المرجعية التي تكتسب وتستدخل على نحو سيكولوجي.

يتمثل الاتجاه الانتربولوجي الثقافي ـــ وخاصة عند باتسون Batson في ارجاع الثقافة المُتَمَثّلة إلى نسق من الأطر والمقدمات الموضوعية التي تسمح بتحليل كافة أشكال الظواهر الثقافية. ويشتمل ذلك على التصورات والسلوك والعواطف وكل التغيرات التي تظهر، في نهاية المطاف، بوصفها انعكاسات لنظام من البديهيات المعيارية.

وتعود جملة السلوكيات الثقافية التي تظهر كسلوكيات نموذجية ومشتركة إلى نظام من الطروحات والتي يمكن النظر إليها منطقياً بوصفها منطلق هذه السلوكات. وبالتالي فإنه يمكن لمقدمة ثقافية أن تكون مصدراً لجملة من الأنماط السلوكية. وانطلاقاً من ذلك فإن منظومة من المقدمات تشكل المنطلق الأساسي لثقافة معينة. إن مثل هذه المحاولة العقلانية والبنيوية تعود بالتأيد إلى معاييرنا العلمية والمعاصرة الخاصة.

لنأخذ بعين الاعتبار، وعلى سبيل المثال، ثقافتنا الغربية، هناك نسق من السلوك التقليدي الذي نطلق عليه التعليم. فكيف يتصور المرء وجود مجموعة من الناس، وفي كل وقت داخل قاعات الدرس، وفي داخل المحاضرات، وفي أماكن مختلفة، الذين يؤدون سلوكاً واحداً أمام أشخاص يتحدثون أمامهم، وهم يلتزمون الهدوء، وينصتون، ويسجلون بعض

الملاحظات ويتدخلون في بعض الأحيان ليطرحوا بعض الأسئلة الخ..

يعود ذلك النموذج السلوكي إلى مقدمات ثقافية والتي يمكن صياغتها تقريبياً على النحو التالي: هناك أشخاص عارفون ينقلون معارفهم إلى الآخرين. ومن الضرورة بمكان اكتساب هذه المعرفة. ونجد أنفسنا هنا وبطريقة عفوية موافقين على مثل هذه المسلمات لأن الاعتقاد بها أمر طبيعي بوصفها تشكل جانباً من ثقافتنا. ويمكن لنا أيضاً أن نتصور أنماطاً أخرى من السلوك الثقافي المشترك الذي ينطلق من الأسس نفسها: قراءة الكتب العلمية، الاستماع إلى نشرات الأخبار الخ..

تتكون تجربة نظام المقدمات الثقافية عندما يدخل المرء في اطار ثقافة متمايزة. إذ يشعر المرء أحياناً بالاغتراب الذهني لأنه يدهش من سلوك بعض الناس ولا يدرك ردود أفعالهم ولأنه يشعر بأنهم لا يسلكون كما يجب. ولكن لا بد من بعض الوقت لفهم طرق تفكير وسلوك هؤلاء الأشخاص **الغرباء** بالنسبة لنا. وفي النهاية يمكن التنبؤ بسلوكهم وتوقع أحكامهم وافعالهم. وانطلاقاً من هذا التكيف الثقافي (الذي يطلق عليه تطبيعاً) يمكن للمرء أن يؤدي تجربة علماء الانتربولوجيا التي عاشوها داخل المجتمعات البدائية أو خارجها وذلك من أجل اكتشاف منطقها الداخلي. ولأنه كما يقول لينتون «Linton» عندما تحاول قبيلة ما أن تدفع عن نفسها وباء التيفوئيد عن طريق مطاردة السحرة فإن ذلك يبدو أمراً منطقياً لأن ثقافة هذه القبيلة تقرر مسؤولية السحرة عن جلب المرض.

فالنظام الثقافي هو نظام يحدد شكل التعبير وردود الأفعال. بل هو بنية اجتماعية على حد تعبير ليفي ستروس Levi Strauss[1] أي بنية منظمة

يميل نشاطها اللاشعوري إلى التعبير عن الشكل في صيغة محددة.

النماذج الثقافية:

يمثل النظام الثقافي بنية من التصورات والتفسيرات الخاصة بادراك العالم. وهو يحتوي على شبكة ادراكية تتضمن معايير ونماذج ورموز ثقافية.

* كل ما أملكه من (ثياب، سيارة، منزل، زوجة، أطفال) حتى علاقاتي، ومعارفي وسلوكي يخضع لتقويم الآخرين الذين ينتمون إلى ثقافتي. وهي أشياء تتيح لهم تصنيفي داخل السلم الاجتماعي لمجتمعي (كوفمان Packard – Goffman). وبالتالي فإن درجة الاتفاق على تحديد المعايير المشتركة للتقييم تزداد كلما كان المجتمع متماسكاً.

لقد كانت الملابس مؤشراً دقيقاً يحدد الانتماء المهني للشخص والمستوى الاجتماعي. وذلك يعني أن الملابس كانت مقننة حيث كان يمنع على أصحاب هذه المهنة أو تلك أو أبناء هذه الطبقة أو تلك من ارتداء مثل هذه الملابس أو تلك. ولكن هذه المعايير ليست واضحة في أيامنا وذلك لأن الميل إلى تحقيق المساواة يُذيب الفوارق الظاهرة، ولكن أحداً ما لا يخطئ في تحديده للمستوى الاجتماعي الخاص بالآخرين. ولكن شبكة التقييم الثقافي أصبحت فقط متقاربة جداً ومعقدة.

فالحكم على شيء ما لا يتم انطلاقاً من معيار واحد، بل، وعلى الأغلب، من مجموعة من المعايير الثقافية. وذلك يعني أن هناك، خلف كل

هذه المظاهر الاجتماعية الشكلية (الملابس)، عناصر ثقافية هامة مثل كيفيات السلوك والعادات الجسدية والصوت والنظرة (هال ماكلي كنايب Hall. Mcclay Knip –) .

ويتضمن النظام الثقافي سلسلة من الصور والأفكار المشتركة بين أفراد الجماعة. وبالتالي فإن النماذج الثقافية لا تعدو أن تكون غير صور منظمة متكاملة رسمت وتشكلت تحت تأثير الحمام الثقافي الخاص بالجماعات الثقافية الاجتماعية لثقافتنا. فهناك نماذج ثقافية لمالكي سيارات الميرسيدس ولمالكي كلاب الكوكر الانكليزية، وهؤلاء الذين يحملون اسم «رولاند» أو «سيلفيا».

** لقد تشكلت هذه النماذج تحت تأثير التربية ممثلة بتأثير المدرسة والأبوين ووسائل الاعلام. ففي فرنسا على سبيل المثال، وفي عمر العشرين، هناك ٩٠٪ من الشباب يعتقدون بأن فارس العصر الوسيط هو كائن كرّس نفسه لصراع القوى الشريرة. وهو ينطلق من مثالية داخلية تبرهن على احترام كبير لنظام الطبقات الاجتماعية وعن الاخلاص المطلق لشخص الملك. فالفارس يتحلّ بسمة النبل الخاصة بالنزاهة والشجاعة. وهو إذ ذاك يشارك في المباريات ويظهر على مرأى من حسناوات القصر ويمارس الحب بمهارة.

وهناك صور أخرى واضحة يمكن جمعها وتصنيفها، إذ يوجد في أحضان مختلف الطبقات الاجتماعية وخاصة هذه التي تتعلق بالمهن الاجتماعية. فهناك ٩٥٪ من الناس الذين يعتقدون بأن المضيفة الجوية مغامرة ومحبة لحياة التغيير عبر الرحلات الجوية. وأن شروط عملها صعبة

جداً إذ لا يوجد هناك استقرار في نمط حياتها. فهي اجتماعية بحكم عملها تستقبل المسافرين على اكراه منها. وهي في كل الأحوال شابة وجميلة .

وفي هذا الصدد تبين أبحاث مختلفة أجريت داخل ثقافات قومية متعددة تنوع الصور الذهنية الجمعية وخاصة فيما يتعلق بالرؤية الشمولية الخاصة بالثقافة.

لنأخذ على سبيل المثال النماذج الثقافية عند الفرنسيين وهذه عند الألمان والتي تتناول الأدوار النموذجية للذكور (Spende Rocheblave). لنحاول أن نمايز بين الجوانب المشتركة الخاصة بالثقافة الغربية والتي تعزى إلى الثقافات القومية.

مقارنة بين النموذجين الفرنسي والإنكليزي

الصفة المعلنة	فرنسيون	ألمان
العاطفة	٥٣ ٪	٥٣ ٪
الصدق	٣٦	٣٦
الحيوية	١٨	١٨
اهتمام بالزوجة	١٤	١٤
تأكيد الذات	٦٨	٣٤
الذكاء (الصفات الثقافية)	٥٣	٦٤
مراقبة الذات	٢٣	٣٤
قيم أخلاقية	١٥	٣٨
اجتماعيون	١٤	٣١

بكل بساطة يمكن ترجمة هذه النماذج بما يتوافق مع الاحتياجات الاجتماعية. وذلك لأنه يلاحظ في نهاية الأمر أن الاكراه ينتشر في اطار

الثقافتين حيث يميل الرجال إلى تأدية ما هو منتظر منهم:

فالميل إلى تأكيد الذات والنزعة العاطفية مظاهر متوقعة عند الفرنسيين ولكن ينتظر من الألمان أن يكونوا أذكياء وعاطفيين أيضاً.

خاصيات المرأة

مقارنة بين النموذجين الفرنسي والألماني

صفة متوقعة	عند الفرنسيات	عند الألمانيات
العاطفية	٦٧٪	٦١٪
تأكيد الذات	٣٣	٣٢
ضبط النفس	٢٤	٢٥
الاهتمام بالزوج	٢٤	٢٢
الميل إلى الاجتماع	١٤	١٣
اهتمامات فكرية عقلية	٥٠	٣٠
الاخلاص	٢٧	٤١
الحيوية	١٦	٢٥
القيم الأخلاقية	٩	٣٢

فالثقافة تحدد بوضوح ما هو متوقع من المرأة بدرجة أكبر مما هو متوقع من الرجل. إذ يتوقع دائماً أن تكون المرأة أكثر عاطفية على وجه الخصوص، وأقل نزعة نحو تأكيد الذات. ويلاحظ على سبيل المثال أن

تأكيد الذات العاطفية هي سمات متوقعة من الرجل الفرنسي كنموذج ثقافي وهنا يتبدى لنا كيف أن الثقافة القومية الفرنسية لا تقيم وزناً كبيراً للجانب الأخلاقي عند المرأة.

التوجه الثقافي:

يعد بينيدكت (R. Benedict) أول من أشار إلى وجود علاقة عميقة تربط بين جميع المقدمات والنماذج الثقافية والعناصر التي تشكل مضمون ثقافة محددة. وتشكل هذه العلاقة الحبكة الثقافية التي يطلق عليها «التوجه العام». للثقافة المعنية. وفي هذا الصدد يمكن الموافقة مع بارسونز (Parsonas) بوجود اتجاهات ثقافية متعددة في داخل الثقافات الاجتماعية. وبالتالي فإن كل عنصر ثقافي يعبر في النهاية وبطريقته الخاصة عن اعتبارات ثقافية هامة في المجتمع.

«ففي مجتمعنا على سبيل المثال ترتبط ظاهرة الزواج والغيرة والسلطة التي يمارسها الكبار على الصغار وعناصر أخرى بمنطق النظرة إلى الانسان المعاصر».

هذا ويمكن لمفهوم التوجه ـــ الاهتمام الثقافي ـــ أن يساعد في دراسة مفهوم الهوية الثقافية الذي يتضمن مفهوم «الجهد المركزي» الخاص بالهوية.

تشكّل النظام الثقافي:

تشكل العمليات التفاعلية الخاصة بالمراقبة الاجتماعية «social Control»، التي درست من قبل علماء النفس (Fromm)

(Sulvan) والســـــوســـــيـــــولوجـــين (Parsons – Kardinac)، المنطـلق العـام لعمـليـة تمثل الأفراد للمعطيات المعيارية الخاصـة بالنظام الثقافي.

وفي هذا الصدد يرى كل من فروم Fromm وهورني Horney وهيزنارد Hesnard وآخرون من علماء التحليل النفسي أن الطفل يمتثل ويخضع من أجل تجنب القلق الذي يكون نتاجاً للخوف من القطيعة مع روابطـه وعلاقاته الأولية. ويشـير ذلك الخوف إلى تمثل الطفل للقواعد الاجتماعية على نحو جيد.

والفرد كما يعتقد سيلفان (Sullivan) يسعى منذ طفولته المبكرة إلى تخفيف درجة القـلق النـاتج عن درجة ما من الاختلال العلائقي. فالاستياء الذي يبديه الآخرون (الأم إزاء رضيعها، العائلة، مربية الطفل، الجمـاعة أو الأشخاص ذوو الاعتبار والأهمية في حياة الفرد) يعدُّ بحق تهديداً يباشر العلاقة العاطفية وتقدير الذات عند الفرد. ومن أجل المحافظة على هذه العـلاقة وعلى التقدير الذاتي يسعى الفرد إلى الاستجـابة وفقاً لمقتضيـات وسطه الاجتماعي ومتطلباته. ومثل ذلك الفعل يندرج تحت شكل قواعد السلوك وتوقعاته.

يعتـقـد كارديني (Kardiner) أن الهويـة (ســواء على المستـوى الشخصي أو الفردي أو الثقافي) نظام من الفعل وعمليات التكيف مع الوسط الذي يحيط بالفرد. وهو الذي يشكل المصدر الأسـاسي للقلق الذي يجب على الفرد أن يتجنبه ويدفعه عن نفسه. فالفرد كما هو الحال بالنسبة للجماعة الثقافية يبذل جهوداً للتكيف مع المخاطر التي تواجهه

وذلك لخفض درجة قلقه وتوتره.

وفي اطار مجتمع ما، وفي مواجهة الوسط الذي يتطور بوتيرة منخفضة فإن جهد التكيف والخفض الخاص بالقلق يتبدد شيئاً فشيئاً ويأخذ أشكالاً روتينية منظمة وفقاً لأنماط سلوكية دائمة في صورة نظام وهو نظام من التفكير والسلوك يطلق عليه «النظام الأمني» والذي يتضمن وجود العقائد وأنماط السلوك والطقوس في حالة تكامل يشترك فيها معظم أفراد المجتمع.

لقد قام بارسونز أثناء دراسته لظاهرة الاعراف بدراسة عمليات التكامل الثقافي للمعايير الاجتماعية وبعض ردود الفعل الخاصة التي تأتي تعبيراً عن معاناة الهوية وعن الكبت الذي تعانيه.

فعلاقات الصداقة تطوّر، في سياق تفاعلاتها، ارتباطات متبادلة مرغوبة وحساسة بالنسبة لمواقف كل صديق من الآخر. وهي مواقف تمتلك دلالة عميقة تتعلق بخاصة احترام الذات. وعندما تحدث تشنجات سلوكية (سلوك غير متوقع) بين الطرفين فإن ذلك يؤدي إلى ضغط واكراه يُفرض على الأنا. هذا ويستطيع الأنا، في أغلب الحالات، ان يتكيّف مع الوضعيات الصعبة، وانطلاقاً من ذلك فإن السلوك اللاحق يميل إلى الاحتفاظ بالعلاقة مع الآخر. ويمكن للصديق في بعض الحالات وخاصة عندما لا يكون معنياً كثيراً بالعلاقة أن يميل إلى التمرد ضد صديقه.

III ـ نواة الهوية الجماعية:

يمكن أن ننظر إلى الجماعة كما يحددها كيرفتش (Gurvitch) بوصفها وحدة جمعية حقيقية، قابلة للملاحظة بشكل مباشر، وتقوم على أساس مواقف جمعية مستمرة ونشطة، وتسعى إلى تحقيق هدف مشترك، وهي وحدة من المواقف، ووحدة من المهمات والسلوك، وهي إذ ذاك تشكل اطاراً اجتماعياً بنيوياً يتجه نحو تحقيق تماسك نسبي لمظاهر الحياة الاجتماعية».

وذلك يعني أن الجماعات ليست مجموعات منتقاة من الأفراد المتجانسين (فئات اجتماعية مندمجة تحت تأثير سمات بسيطة) أو تجمعات عفوية من الأفراد (حشد ـــ حفل). وهي ليست أيضاً نقابات أو منظمات واسعة تسعى إلى تحقيق أهداف عامة.

إذ يمكن أن نتحدث عن نظام ثقافي للجماعة (فلكل جماعة محددة ثقافتها الخاصة) وفي هذا السياق يمكن أن نتحدث وبكل بساطة عن ذهنية الجماعة (Mentalite).

إن مفهوم الذهنية يغطي مفهوم الثقافة المستبطنة وذلك على نحو

شمولي. فالذهنيـة هي الخبرة المكتسبـة التي يشـترك فيها جميع أعضـاء الجماعة. وحال هذه الخبرة كحال الثقافة المستبطنة تأخذ وضعية مرجعية مستمـرة ولا شعورية وذلك من أجل ادراك الأشيـاء، ومن أجل تحديد الأحداث، وتوجيه السلوك.

تشير الذهنية، باللغة الداوجة، إلى حالة نفسية داخلية وإلى طريقة للنظر إلى الأشياء والتي تنطلق من مبادىء أساسية. وهي طريقة في النظر إلى الأشياء ترتبط عفوياً مع آداب سلوكية قابلة للملاحظة. وفي اطار هذا المعنى يمكن للمرء أن يقول أية ذهنية ؟ وذلك من أجل ادانة الأخلاق والمباديء السلوكية التي تشكّل قاعدة التصرف والسلوك. وبالبداهة يتم الربط بين أجزاء كُلٍّ متكامل من جهة والمبادىء السلوكية من جهة أخرى والتي تشكّل منطلقات الفعل الانساني.

فالذهنيـة تنطوي في ذاتها على رؤية خاصـــة للعالم وعلى طريقة للتعـامل مع الأشيـاء وعلى مواقف خاصـة بعناصر الوسط الذي يحيط بالانســان. ولا نعني بذلك أيّة عنـاصر لا على التعيـين. بل يشـار إلى العناصر الاساسية للهوية التي تنطلق منها الرؤية الخاصة بالوجود: المنطلقات الأســاسية للهوية. وتشكل هذه العناصر الهامة التي تأخذ فيه الجماعة موقعها العناصر العقديّة والقالب الأساسي الذي تتشكل فيه هوية الجماعة وأسسها.

ولا يختـلف حال الذهنيـة عن حال الثقـافة المستبطنـة إذ يمكن للذهنيــة أن تأخذ تكـاملهـا تحت شكـل نظـام من المقدمات والنماذج والتصورات الثقافية.

«فالشباب الجامح الذي أُعدّ في المدارس العليا على سبيل المثال يمتلك عقلية مشبعة بالروح الايديولوجية الليبرالية في صورتها الانسانية وتتحدد هذه الروح بالسمات التالية: الحماس للعمل والتأثير والفعل، الخلق والابداع والتحليل والتفكير (عقلانيون)، وبالتالي فإن حلول المشكلات المطروحة تغدو ممكنة عبر توسط تقنيات محددة (فهم علمانيون)، وقادة مؤهلون ويعرف الواحد منهم كيف يفرض نفسه إذ تتوفر لديه الكفاءة، ويحقق النجاح المهني وذلك من خلال بناء علاقات مناسبة (الوصولية والانتهازية)، وتتجانس هذه النماذج الشبابية مع نماذج كبار موظفي الدولة وكبار مديري الشركات وكبار رجال العلم ، وكبار رجال السياسة الذين يعرفون الأشياء بدقة ويرغبون في تحقيق ذواتهم .

إذن يتدخل النظام المرجعي للذهنية على نحو دائم كشبكة لتحليل رمزية العالم ، وكنظام من المعلومات يؤدي دوراً تفسيرياً . وتعرف هذه الوظيفة من خلال دراسة ايديولوجيات الجماعة . وذلك لأن الايديولوجيا تقدم تفسيراً دائماً للأحداث وذلك في إطار نظامها الخاص .

« تشير وسائل الاعلام إلى تباين التفسير الذي يعود إلى منطق تباين الذهنيات ، فعندما يظهر حدث ما فإن الناس يرون فيه أشياء مختلفة . فأرباب العمل على سبيل المثال ينظرون بطريقة تختلف عن رؤية الثقافويين . ففي الوقت الذي ينظر فيه أرباب العمل إلى الحدث على أنه اعتداء على حرية العمل يرى فيه الثقافيون حماية لحقوق العمال . وبالتالي فإن الخطاب الذي يدّعي العقلانية والذي يوجه من أجل اقناع الرأي العام ليس أكثر من عملية تبرير مسبقة تعمل على تقييم الأحداث ، وهو

في النهاية جهد ينطلق من مقدمات متأصلة في الذهنية » .

ومهما تكن صورة الذهنية ، كنظام منطقي ، أو نظام مرجعي ، أو نظام للتصورات ، أو مصدر لتفسير العالم ، أو ينبوع للتعبيرات الخاصة بالجماعة ، فإنها في نهاية الأمر تشكل نواة الهوية الجماعية .

IV ـ نواة الهوية الفردية:

النظام المعرفي :

يعد النظام المعرفي ، الذي سندرسه على المستوى الفردي بوصفه نواة الهوية ، نظيراً للنظام الثقافي ونظام الذهنية الموجودان في اطار المجتمع والجماعة .

تمثل النشاطات المعرفية العمليات الداخلية التي تشكل أداة الحياة النفسية في تنظيم كل المعارف والمعلومات المتاحة في سياق معرفي متكامل . وهي معلومات من أنواع مختلفة جداً داخلية : احساسات جسدية ومشاعر داخلية . وتفكير وتأمل ، وخارجية مثل الأحاسيس والتصورات والمعلومات المختلفة . وهناك جانب من هذه المعرفة ينطلق من ذاته ويشكل مصدراً للشعور بالهوية الشخصية (Codol) .

لقد شكلت المعرفة المتكاملة أو النظام المعرفي موضوعاً باشره علماء النفس بالدراسة والتحليل ، ويمكن النظر إليه اليوم بوصفه نظاماً عاطفياً ادراكياً وسلوكياً ، أي بوصفه بنية اساسية للشخصية تنطلق منها كل فعاليات الفرد ونشاطاته . وتنطوي هذه الرؤية على تصورات امبيريقية

ثقافوية خاصة بالشخصية . ومن خواص هذه الرؤية انها تنطوي على عنصر البساطة والتكامل والأهمية وعلى جانب أكيد من الواقعية . ومن أجل معالجة هذا النظام ودراسته يجب علينا أن ندرس وبشكل متعاقب عمليات تشكله ومسار عمله ووظيفته .

تكوّن النظام المعرفي :

يتفق علماء النفس على اختلاف مدارسهم على أن التجارب الانفعالية الوجودية تترك طابعها على الفرد كما تترك آثارها على بنيته النفسية . وأن هذه الآثار الانفعالية المتأصلة تتدخل في عملية ادراكه للعالم كما تدخل في تحديد سلوكه .

ويمكن للآثار الانفعالية هذه أن تتشكل تحت شكل مبادىء الحياة (أو ما يسمى بالمبادىء الوجودية) . وتتبدى هذه المبادىء كخلاصات نفسية يكوّنها الفرد عبر وضعيات نفسية معاشة .

ويحظى ذلك التصور ضمنياً على موافقة جميع المنظرين في مجال علم النفس ، ويبرز الاختلاف بينهم عندما يحاول كل منهم تحديد الوضعية أو المرحلة الأكثر أهمية في مرحلة الطفولة .

لنأخذ بعض الأمثلة : « تشكل الوضعية الأوديبية المسألة الأساسية للوجود الإنساني عند فرويد Freud وهي وضعية تعيشها الكائنات الانسانية دون استثناء مهما تكن الثقافة التي ينتمي إليها الفرد .

وتتبدى الوضعية الأوديبية بوصفها وضعية انفعالية بين الثالثة

والخامسة من العمر عند الطفل حيث تظهر الميول العاطفية الجنسية تجاه الأبوين من الجنس المقابل هذا من جهة ، بينما تظهر عداوة غيورة تجاه الجنس المماثل من جهة أخرى . وبالتالي فإن الطريقة التي يتم فيها الخروج من هذه الوضعية تلعب (في رأي فرويد) دوراً حاسماً في تحديد هوية الطفل في مرحلة الرشد . ويحدد ذلك في البنية النفسية عند الطفل مفاهيم السلطة والحب والعلاقات العاطفية والجنسية . كما يؤدي ذلك إلى تحديد الأنماط السلوكية للطفل إزاء السلطة والحب والعلاقات الجنسية ، وذلك في مرحلة الرشد . وترتبط الوضعية الأوديبية هذه مع وضعية الكبت أو مع وضعية الرغبات التي تستوجب العقاب . فالطريقة التي يعتمدها الآباء في حلّ هذه الاشكالية والخروج بالطفل من الوضعية الأوديبية تترك آثارها النفسية وتؤثر في بناء التصور الذي يكوّنه الفرد عن نفسه وعن قدراته (تصوراته ومواقفه الخاصة بجنسه وأفعاله وامكانيات تأكيد الذات) . لقد اسهم علم التحليل النفسي (Psychanalyse) وعلى نحو واسع في وصف عقدة الخصاء « Castration de Complexe » . وهي عملية نفسية تؤدي إلى خلل في الشخصية وذلك عندما يكون الأبوان متسلطين ويعمدان إلى القسر والاكراه في حرمان الطفل من حرياته ومتطلباته فإنهما يحطمان عند الطفل كل امكانيات تأكيد الذات واستقلاليتها . وتحت تأثير ذلك يقتنع الطفل أخيراً بإيعازات الابوين : فهو لا يصلح لشيء ، ولا يستطيع أن يقول بأن عمله جيد وليس له الحق في القيام بأي عمل .

ويعتقد لاينغ « Laing » أن الوضعية الأساسية في مرحلة الطفولة هي العملية التي يتم فيها تحديد الأنا بواسطة الآخر » . فالنظام العائلي في واقع

الأمر (مهما كانت حدود هذا النظام والذي يمكن أن يتجلى في العلاقة بين الطفل وامه) هو نظام من الادوار لا يوجد فيه ولا يمكن أن يوجد فيه تحديد دقيق لأدوار كل فرد فيه . وإذا كان الطفل تحت تأثير دونيته ووضعيـة التبعيـة التي يعيشها ولا سيا في مرحلة الطفولة الأولى فهو لن يستطيع وليس له أن يحدد دوره بنفسه . بل هو كائن ينتظر منه أن يؤدي نشاطاً ما ... وباختصار تتحدد هويته من قبل هؤلاء الذين يهيمنون أي آخر من قبل الراشدين ولا سيا عائلته على وجه التحديد . فالنظام العائلي يقترح على الطفل دوراً يقوم به وشخصية يتمثلها من أجل أن يكون مقبولاً في الأسـرة . والطفـل لا يملك خيـارات بل يخضع إلى الأوامر والتعليمات من أجل ممارسة دوره . وهنا تتبدى الأهمية الأساسية لعملية بناء الهوية من خلال تحديد الأنا كمعطى من معطيات العائلة في مرحلة الطفولة الأولى . وهنـا نلاحظ بأن الفكرة الأسـاسية عند لينغ Laing ومعارضي التحليل النفسي تقوم على أساس أن اضطرابات الهوية تنشأ تحت تـأثير الفـاعلين الاجتماعيـين الذي يعـانون من المرض أنفسهـم (أفراد ، عائلات ، جماعات أو مجتمع ككل) وهم أنفسهم الذين يفرضون على الآخرين نظاماً من العلاقات المرضية الخاصة بهم . وبعبارة أخرى يسعى هؤلاء من أجل حماية نظامهم المرضي إلى فرضه على الآخرين وإلى بناء هويـات أخرى مرضيـة . وذلك لأنهم لا يستطيعون الاستمرار إذا لم يستجب الأخرون لتلبية حاجاتهم المرضية . ومن هنا بالذات ينطلق لينغ ليقول بأن الهوية الشخصية هي دائماً شخصية متواطئة ، وذلك يعني أنها تحتـاج إلى رفيق يؤدي أدواراً متممـة لدور الهوية المتواطئة . وعندما يتم

تشكيل الهوية واقعياً فإنها تحتاج إلى نظام العلاقات الذي كوّنها . ومن هنا فهي توجه النداء إلى الآخرين من أجل الدخول في نظام التوقعات والعلاقات المقترحة . وهنا تتبدىء الهوية بوصفها نظاماً من المقتضيات على منوال مفهوم الدور وتوقعاته .

يصف لاينغ في كتابه «حول العائلة» ظن على سبيل المثال، نوعاً من العائلات التي تُكره أطفالها على قبول وصف مشوه لانفسهم . فالطفلة ميّا Maya لا تستطيع أن توافق على صورة الطفلة الصغيرة الخاضعة التابعة . وهي صورة خيالية عنها في عمر الرابعة وهي صورة يفرضها أبواها حين عودتها إلى المنزل وهي في الرابعة عشرة من عمرها حيث تكوّنت لها شخصية جديدة لها اهتماماتها ونشاطاتها المختلفة . وهي وتحت تأثير ذلك تقع فريسة للمرض الذي يشير إلى رفضها لهذه الهوية المفروضة .

وفي هذا الصدد يروي لومي Lemay حالة عائلة مكوّنة من أبوين وثلاثة أطفال ووالدة الزوج . فالسلوك داخل العائلة ينطلق من نظام العلاقات القائم بين أفرادها إذ لكل دوره في العائلة وبالتالي فإن هذه العلاقات تحدد صورة الهوية الخارجية (صورة الذات كما تبدو للآخرين) . وعندما غادر الولد البكر للأسرة عَمِل نظام العلاقات الأسرية على اعادة تحقيق توازنه ، وأخذ الطفل الأصغر الهوية العائلية الجديدة ، ومثل هذه الهوية الجديدة تتطلب من الطفل أن يغير سلوكه كلياً ، حيث بدأ بتَمَثُّل السلوك العدواني لأخيه الأكبر الذي غادر الأسرة . وهنا يقع الطفل فريسة المظاهر المرضية لشخصية أخيه البكر : الهروب والمشاكسة والمراوغة مع الصبيان ، والحصول على نتائج مدرسية

متدنية . فالعائلة هي التي أوجدت هوية الطفل (الطفل المُشْكل) والذي يمثل انعكاساً لعلاقات الاكراه والمشكلات الداخلية .

التأثير المرضي :

ترتبط أغلب اضطرابات الهوية التي تظهر عند الكبار مع طبيعة الهوية التي تحددت في مرحلة الطفولة فالسمات الخاصة بالهوية قلما تكون متكاملة وبالتالي فإن اللا تكامل ينمّي مخاطر الاضطرابات اللاحقة للهوية . (انظر الفصل الثالث الفقرة الثانية).

يتصف انفصام الشخصية وهو مرض نفسي (Schizophrenie) باضطرابات كبيرة تشوش علاقات الفرد بالوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه . إذ يوجد الفرد في حالة قطيعة كلية مع العالم ويعيش عزلة مطلقة بعيداً عن الاحساس بالمثيرات الخارجية ومنبهات الوسط .

وفي هذا الخصوص يشير باتسون Batson بأن هذه الهوية المرضية هي نتاج لايحاءات متناقضة وأوامر مصدرها الوسط العائلي للفرد في مراحل مختلفة من طفولته . ففي داخل العائلة تقول الأم للطفل على سبيل المثال اعتمد على نفسك وقم بجهود شخصية ... وعندما تفعل ذلك فإنني سأحبك كثيراً . وعلى خلاف ذلك فإنها تقول للطفل دائماً أبق بجانبي ولا تقم بأي عمل يجعلني أخاف عليك وسأحبك كثيراً . وقد تقول له أيضاً اعمل هكذا وكن كذلك وستكون طفلي المدلل . والاب يقول له خلاف ذلك ويعين له المكافأة نفسها والخاصة بالحب العاطفي

القطعي . والمصيدة التي تكمن هنا في إطار هذه التعليمات المتناقضة هي أن الطفل يقع في دوامة مخيفة من الصراعات السيكولوجية التي تؤدي به إلى العصاب ، وتلك هي طريقة بافلوف في إجراء العصاب الشرطي التجريبي عند الكلاب . ومن أجل الخروج من هذه المصيدة يقول باتسون Batson يقع الطفل مكرهاً في مطب انفصام الشخصية « Schizophrenie » وذلك يسمح له بالتعبير عن هذا التناقض لأنه يريد أن يتصل — من غير اتصال — وأن يكون فاعلاً من غير فعل وذلك لأنه لا يستطيع تحقيق الاتصال والتعبير عن مشاعره في صيغ أفعال متماسكة خالية من التناقض .

التربية والتنشئة والتطبيع :

يمكن القول منذ البداية أن مراحل الطفولة الحرجة التي يمر فيها الفرد تُشكّل الملامح الأساسية لشخصيته في مرحلة الرشد . ولا بد لنا في هذا الخصوص من الإشارة إلى أهمية الظروف الثقافية والاجتماعية التي تتدخل أيضاً لتحديد مسار نمو الشخصية واتجاهه .

يعتقد علماء الاجتماع البنيّويون — الوظيفيون أنه لا بد للمجتمع من مواجهة بعض المشكلات الأساسية والعمل على ايجاد الحلول المناسبة لها . وبالتالي فإن الخيارات المتاحة لحل المشكلات الاجتماعية تكون في التوجهات الثقافية وبالتالي فإن هذه الخيارات أن تدخل في صميم النظام الثقافي للمجتمع .

« وتعد المسألة الأخلاقية للطبيعة الانسانية من المسائل الأساسية المطروحة داخل المجتمعات الانسانية (هل هي خيرة أم شريرة) . وهناك مشكلة تعريف العالم وتحديد مكان الانسان داخله (نوع المعرفة ، والدين) ، ومشكلة تنظيم المجتمع ، ومشكلة طبيعة العلاقة التي تربط الفرد مع الآخرين » .

وانطلاقاً من ذلك الاتجاه في النظر إلى مراحل تكوّن الهوية يمكننا أن نستعرض بعض العناصر الأساسية الخاصة بالنظام الثقافي أو بالذهنية الخاصة بالجماعات .

إذا كان على كل فرد حقاً أن يواجه في إطار حياته الاجتماعية سلسلة من الوضعيات الصعبة يمكن لنا أن نميز بين هذه الحالات المشكلات والوضعيات التالية :

١ ـــ المشكلات التي يواجهها الجميع والتي تجد حلولاً لها وفقاً لطريقة واحدة في إطار مجتمع واحد وهي بالتالي تترك نفس الآثار والانطباعات بالنسبة للجميع .

٢ ـــ الحالات التي يواجهها المرء في إطار جماعات خاصة ، أو في إطار أوساط اجتماعية معينة ، وهي التي تترك آثارها على الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الأوساط والجماعات فحسب .

٣ ـــ الحالات التي يعيشها الانسان في إطار تجربته الشخصية والتي تترك آثارها على الذين يعيشونها .

ويمكن النظر إلى الآثار النفسية التي تتركها الحالات الصعبة المعاشة بوصفها مبادىء نفسية أو نماذج مرجعية ، أو نوعاً من التصورات

الخيالية . ومثل ذلك النظام المعرفي الذي يتبدى على المستوى الفردي يقابل ذلك النظام الثقافي الذي يتجلى في المستوى الاجتماعي ..

ويمكن القول هنا مع واتزلاوك (Watz Lawick) بوجود مستويات من المركبات المعرفية (Synthese Cognititf) والادراكية . فهناك في البداية معرفة الاشياء ومعرفة الأشياء هي التي تتم عن طريق الحواس . وهي المعرفة المحسوسة وذلك وفقاً لنموذج بافلوف (Pavlov) في التعليم الشرطي . وإذ كنا تحدثنا عن معرفة بالأشياء فهناك أيضاً معرفة حول الأشياء . وهي معرفة من الدرجة الثانية وتلك هي حالة كلب بافلوف على سبيل المثال الذي يتعلم شيئاً ما حول الأشكال الهندسية التي تعرض عليه . والتي تتبدى في إطار الوضعية التجريبية على شكل مؤشرات خاصة باللذة والألم فهي بالنسبة للكلب ذات معنى وجودي وحيوي . وهناك معرفة من المستوى الثالث وهي المعرفة التي تدور حول المعرفة من الدرجة الثانية أو نوع من المجاراة المنطقية العليا الخاصة بمعرفة الدرجة الثانية . عندما يتعلم الكلب ويدرك معنى الدائرة والشكل البيضوي فإنه يتصرف بطريقة وكأنه يقول لنفسه انني في أمان حقيقي داخل ذلك العالم وذلك لأنني استطيع أن أميز بين شكل الدائرة والشكل البيضوي ، ويوجد الانسان في حالة سعي دائم من أجل الحصول على معرفة حول الأشياء التي تدخل في إطار تجربته (وحول نفسه أيضاً) . فهو يحاول أن يدرك دلالة الأشياء وذلك وفقاً لطريقة التعلم والادراك التي اكتسبها . وبالتالي فإن جملة الاستنتاجات التي يصل إليها توضع في خدمته بوصفها مقدمات دالة تساعده في إدراك العالم .

ومن أجل تبسيط المسألة يمكن القول بأن هناك تداخلاً عميقاً بين النظام الثقافي والذهنية والنظام المعرفي الفردي . وبالتالي فإن النظام الثقافي يتميز بخاصة العمومية إذ يتاح لجميع أعضاء المجتمع وكل الجماعات بمختلف الذهنيات . ولكن الذهنية تتجلى في إطار النظام المعرفي الفردي .

وتشكل هذه الأنظمة في إطار تكاملها وحركتها البذور الحقيقية لنمو الهوية بوصفها مصدراً للمعرفة والتنظيم وإصدار الأحكام التي تساعد الفرد على معرفة نفسه بنفسه . وهذا يعني أن الأنظمة المعنية تشكل مصدر الشعور بالذات وادراك مكوناتها مثل : الشعور بالوجود والانتماء والاختلاف عن الآخر والشعور بالقيمة والاستقلال وتقدير الذات .

هذا وتشكل القيم وتوجهاتها مصدراً للمشاعر والقيم الغائية التي تجسد جوهر وجود الكائن الإنساني . وانطلاقاً من ذلك فهي تشكل في الوقت نفسه مصدراً للشعور بالوجود نفسه .

وتقوم هذه الأنظمة في نهاية الأمر بتوجيه تجارب الفرد مهما يكن نوع هذه التجارب والعمل على تحقيق تكاملها . وانطلاقاً من ذلك فإنها تكشف جذور الهوية الفردية وتشير إليها .

التوحد والتقمص :

(Identification)

ينطوي مفهوم التوحد (Identification) على دلالتين أساسيتين . فهو يشير إلى فعل التعرّف (Identifier) وذلك يعني تحديد شيء ما بالاستناد إلى بعض المؤشرات والدلالات وذلك من أجل تصنيفه في إطار فئة من المعارف المحددة.هذا من جهة . ويشير من جهة أخرى إلى فعل التوحد مع شخص آخر أو شيء ما ، ويعني ذلك تمثل الفرد لعدد من سمات فرد آخر أو خاصة من خواصه .

سنعمل فيما يلي على معالجة هاتين العمليتين النفسيتين وهما تحديد الآخر (Identification d'autrui) ، والتوحد مع الآخر (Identificastion á L'autrui) .

تعيّن الآخر:

تشتمل نواة الهوية الأساسية ، بوصفها شبكة تفسير وادراك ، على فئة من العناصر الأولية التي يمكن للفرد من خلالها أن يعيّن الاخر ويتعرّف

عليـه . وإذا كانت الهوية تتحدد في ثلاثة مستويات : ثقـافية وجماعية وفردية كما تبين سـابقاً ، فإن ذلك يقتضي وجود ثلاثة مستويات ممكنة لتعيـين الآخر : إذ يمكن تعيين الآخر على أسـاس ثقافي أو جماعي أو فردي .

وتجري الأمور لتحديد هوية الآخر في سيـاق هذه الإجابة عن الأسئلة التالية :

ــ من يكون ذلك الفرد ؟ أو من تكون هذه الجماعة ؟ وذلك بالقياس إلى هذه المعايير الثقافية أو تلك ؟ ــ من يكون ذلك الآخر ؟ وذلك وفقاً للمعايير الخاصة بوضعي داخل سياق اجتماعي محدد انتمي إليه ؟ ــ من الآخر بالقياس إلى معاييري الشخصية السيكولوجية التي استند إليها في تقييمي للآخرين ؟

وتتداخل هذه المستويات الثلاثة وتؤدي عملها ، مجتمعة ، وفي آن واحد ، في غالب الأحيان ، وذلك لأننا نعوم كلياً في إطار هذا السياق الثلاثي الخاص بالوسط الاجتماعي الذي يكتنفنا ، والجماعات التي ننتمي إليهـا ، والعلاقات الشخصية التي تربطنا مع الأفراد الآخرين (سياقات التكامل الاجتماعيةوالعلائقية عند كيرفيتش(Gurvitch) . وبالتالي فإن التركيز على أحد هذه الجوانب دون الآخر مرهون بالوضعية الاجتماعية التي يوجد فيها الفاعل الاجتماعي . إذ تتم عملية تحديد الآخر (فرداً أو جماعة) بشكل آلي وعلى نحو لا شعوزي . ويرتبط ذلك التعميم بخاصية ادراك النفس لذاتها . فادراك الآخر كما يرى ستوزل (J.Stozel) يعني تصنيفه في فئات ثقافية دالة تحدد مركزه الاجتماعي ودوره . ولكن عندما

تكون العلاقة شخصية فذلك يعني تصنيف الآخر انطلاقاً من الصيغة السيكولوجية الكامنة في داخلنا (وتعد هذه العمليات صالحة عندما يتعلق الأمر بموقف جماعة من الجماعات الأخرى) .

يمتلك كل مجتمع وكل جماعة وكل فرد على سجل خاصة بنماذج الهوية يسمح بمعرفة الاخرين وتحديدهم .

لكل مرحلة تاريخية ، لمجتمع ما ، شخصياتها الاجتماعية . وهي شخصيات نموذجية خيالية تساعد على ادراك الآخر .. لقد وصف الرومانتيون الفرنسيون شخصيات نموذجية مثل : العاطل عن العمل ، والبقال ، وكاتب العدل ، والمرأة المثالية (بلزاك — Balzac) ، والحسناء والناسك ، الشرير ، والسوقي (جانين — J.Janin) ، وفي ايامنا هذه تصف لنا وسائل الاعلام سمات الشخصيات « التكنوقراطية » ورجل السياسة والقسسه اليساريين ، والامهات العازبات ، ورجال الصحافة والعلم ...

اذن لا يمكن لنا إلا تحديد موقع الآخر بالنسبة لنا. وهي ملاحظة أولية بالنسبة لحقيقة العلاقة التي تقوم بين الناس. وبالتالي فإن حصيلة تعيين الآخر تتدخل في كل العمليات الخاصة بالاتصال مع الآخرين.

ومن هنا يكمن وصف الفئتين الأساسيتين (الجسدية — النفسية) الخاصتين بادراك الآخر بأنها فئات : « معروفة — غير معروفة » ، « حسنة — وسيئة » بذاتها .

وفي البداية ، تتميز هذه الفئات بالاتساع والتموج ، وبالتالي فإن

كافة اشكال التدريب الشخصي والاجتماعي تسعى إلى المقاربة بين هذه الفئات وجعلها أكثر فعالية في عمليات التميّز والتعريف .

فالطفل يوظف واقعياً أنظمته المعرفية الفطرية في تحديده للآخرين وفي التعرّف إليهم. فهو إذ يشعر بالأمن عندما تقترب منه أمه أو أحد الأشخاص المألوفين بالنسبة إليه يعتريه الخوف عندما يقترب منه أحد الغرباء . وتبين الدراسات الايتولوجية (علم الأخلاق والعادات) التي أجريت على مستوى الجماعات ، ولا سيا في مراحل التحولات الثقافية ، إلى وجود مؤشرات لانخفاض القلق وذلك عند استمرار الاتصال بالغرباء والذين يشكلون مصدراً للتساؤلات التي تدور حول غاياتهم واهتماماتهم .

ويسعى التدريب الاجتماعي إلى تخزين معلومات مرجعية تساعد الفرد على معرفة الآخرين وتحديد هويتهم بصورة عفوية سريعة . ويمكن الحديث عن قدرة خاصة لتعيّن الآخر ومعرفته . وهي قدرة تتطوّر وتصبح أكثر تعقيداً كلما تكاملت مختلف العناصر الأساسية الخاصة بمكوّنات الهوية .

فجهل الآخر وعدم الثقة فيه يترابطان — ومن هنا بالذات تنشأ ردود فعل بيولوجية تتعلق بالخوف والهزيمة أو بالهجوم الدفاعي — ويشكلات مصدراً لارتكاسات عقلية تحليلية . ويسعى ذلك الجهد العقلي إزاء الآخر إلى خفض درجة القلق ورفع سوية الثّقة والانتقال بالمجهول إلى دائرة المعلوم وبالتالي فإن كل تجربة جديدة توظف في خدمة التجارب المعرفية اللاحقة .

من أجل الانتقال بالشيء من حالته المجهولة إلى حالته المعلومة يقوم

الفرد بتوظيف عمليات عقلية اضفائية (موسكوفيسي — Moscovici) . والتي من شأنها اطلاق احكام على الآخر ، والبحث عن المؤشرات التي تساعد في تعريفه وتحديده .

ويقوم الحكم الأول على أساس ادراك كلي للعناصر الأساسية والتي تمكّن الفرد وانطلاقاً من تجاربه السابقة من اعطاء صورة أوليّة مسبقة . ويمكن لذلك الافتراض المسبق ، وبقدر ما تسمح التجربة المعرفية الجديدة ، أن يتأكد بدرجة أكبر أو أن يترك مكانه لافتراضات أخرى أكثر شمولية ، وخاصة فيما يتعلق بالشكل الادراكي .

وتشير التجارب الخاصة بتعين الآخر أن عملية التعرّف تحدث بمساعدة نماذج ادراكية معقدة تتميز بخاصية الفورية والشمولية وذلك بحدود تتجاوز فيه العون الذي تقدمه الاشارات المنعزلة (Mucchielli — ١٩٧٨) .

عرضت مجموعة من الصور في إحدى التجارب ، على عينة من الأفراد ، وطلب منهم تعريف الأشخاص المعروضين في الصور . وبعد الحصول على اجاباتهم طلب من افراد العينة تحديد المؤشرات المعتمدة في تحديدهم للشخصيات الموجودة في هذه الصور .

تشير إحدى هذه الصور إلى رجل أسود امريكي ، وهو عازف جاز مشهور (متزوج ولديه طفلان) ، وصل لتوه إلى إحدى محطات القطار في باريس ، وذلك من أجل المشاركة في إحدى الحفلات الفنية ..

بينت نتائج الدراسة ، التي أجريت على اجابات أفراد العينة الخاصة بتحديد الشخصيات المعروضة التي عرضت في الصور ، وجود

مجموعتين أساسيتين من المعايير التي اعتمدت في تحديد هوية الصور المعروضة وهما :

١ ــ تتشكل مجموعة المعايير الأولى التي وُظِّفت في تعريف الصور على العناصر التالية:

الأسود = مهاجر = عامل ، محطة = عامل سكة حديد = حمال ، قبعة « كاسكيت » = بذلة موحدة تضاف إلى جملة سمات الحمال .

٢ ــ تعطي المجموعة الثانية والتي يصعب استنتاج عناصرها (وخاصة عنصر المحطة الذي يبدو في البداية) صورة هيئة عامة (استرخاء ، نظرة ، زي) . ثم تعزز بمؤشرات تؤكد الانطباع الأول ــ وتتعارض مع صورة الحمال ــ (حقائب ــ مجوهرات) والتي يمكن أن تعطي صورة عن أحد المسافرين : والتقويم هنا يعود إلى شكلين متمايزين هما :

أ ــ محطة ــ أسود ــ قبعة (كاسكيت) .

ب ــ محطة ــ هيئة عامة ــ حقائب ــ سلسلة ــ أيدي ــ مجوهرات .

ويلاحظ في هذا السياق أن المجموعة الأولى هي أقل شمولاً من الثانية . ويلاحظ في إطار النموذجين أن هناك عملية اسقاط واضفاء جرت منذ لحظة رؤية المحطة ، واللون الأسود ، والقبعة . وهي عناصر كما يلاحظ تتآلف مع عناصر اخرى لإعطاء تحديد أكثر دقة وموضوعية .

تبين هذه التجربة أن هؤلاء الذين يملكون قدرة متواضعة في التعرّف على الآخرين يعتمدون على العناصر المرجعية الأوليّة والتي تخدعهم

غالباً في تعرّيف الموضوعات المطلوبة . وهم غالباً ما يقعون في مصيدة التحديد السريع الذي ينطلق من عناصر محدودة جداً .

إن من يملك القدرة على اعطاء تحديدات دقيقة هم هؤلاء الأشخاص المتخصصون في مجال الحياة الاجتماعية للجماعة التي ينتمي إليها الشخص المراد تعرّيفه . وذلك لأنهم يدركون التفاصيل الدقيقة المطلوبة في عملية التعرّف والتحديد . ويلاحظ في إطار التجارب المشار إليها اعلاه أن أحد المختبرين ، وهو استاذ في الموسيقى ، قد استطاع أن يتعرف على عازف الجاز بدقة وسهولة .

هذا ويملك أهل الخبرة والنضج الاجتماعي قدرة متميزة في التعرّف على الآخرين بدرجة عالية من الدقة ، وذلك لأنهم لا ينطلقون في عملية التعرف من مؤشرات محددة وضيقة بل ينطلقون من معايير أكثر شمولية وتكاملاً وينتمي هؤلاء الأشخاص كما تشير الدراسات الجارية في الغالب إلى المسنّين من الناس . وغني عن البيان ان التجربة الاجتماعية تتدخل وخاصة نوع المهنة التي يؤديها الشخص ، وذلك لأن المهنة قد تتطلب اتصالاً واسعاً مع الآخرين وذلك يعزز عند ممارسيها القدرة على تحديد المؤشرات الدالة على الانتماء الاجتماعي للأفراد المعنيين . إذ تكفي نظرة سريعة لأحد المهنيين لإدراك الرموز الخاصة بالموقف وهو ادراك لا ينطلق من عامل واحد وإنما يستند إلى رؤية جشتلطية شمولية .

فالسلوك يتكامل مع الموقف في توليد نظرة شمولية يمكن مقارنتها مع النظام المعياري المرجعي لكل فرد . وتوجد هذه المعايير (رموز مرجعية) على المستوى الانتربولوجي كما تشير اعمال (هال — Hall

E.T.) ولا سيما في المستوى الثقافي العلائقي .

يرى هال ،على المستوى الانتربولوجي ، أن الموقف يأخذ مرتبة الأولوّية في عملية التحديد ، بينما تأخذ نظرة الشخص مهمة تحديد الأبعاد العليا والدنيا للشخص ، وأخيراً تأتي طريقة الحديث وطريقة اللباس فيما بعد لتحديد وضعية الآخر في سياق الأدوار الاجتماعية المحددة .

ويمكن اضافة مجموعة من النماذج المعروفة مسبقاً على مستوى الجماعات ، ولا سيما هذه الخاصة بالجماعات الأخرى ، كما يمكن أخذ المسافة الاجتماعية القائمة بين الجماعات والأفراد بعين الاعتبار والأهمية . وتلعب التجربة الشخصية ، في النهاية ، دوراً هاماً ، وذلك على المستوى السيكولوجي ، في التعرف على الآخرين وذلك من منطلق القيم الفردية الخاصة بمعايير الحسن والسيء .

ويمكن القول ، في هذا السياق ، أن التعّرف على الآخر ينطلق من نماذج الهوية الثقافية والجماعية والشخصية التي توجد مسجلة في بيانات مرجعية تكونت عبر التجارب المتواترة للفرد . وإذا كانت هذه المخططات المرجعية تستطيع أن تكشف عن حقيقة الآخر فإنها تتدخل أيضاً لترسم حدود سلوكنا الاجتماعي . فنحن نسعى إلى تحقيق التوافق مع الموقف عفوياً وذلك وفقاً لصورة الهوية الذاتية أي بما نعتقد أنه يجب علينا أن نفعل . وهذا يعني أن الرموز الاجتماعية مشتركة وأن الحياة الاجتماعية بالغة السهولة .

تقمص الآخر

(Idnetification a autrui)

التقمص (Identification) عملية نفسية يَتمثّلُ الفرد بوساطتها جانباً أو خاصية أو سمة من جوانب الآخر أو خواصه أو سماته . وقد يأخذ التقمص صيغة التوحد الكلي أو الجزئي مع الآخر . فالشخصية تتكوّن وتتباين في سياق سلسلة من عمليات التوحد والتقمص (لابلانش وبونتالي — Laplanche et pontales) .

أ — التقمص الفردي : (Identification Individuel) :

تعدّ عملية التقمص صيرورة سيكولوجية أساسية لتشكيل الشخصية ونموها . ويعتقد علماء نفس الطفل أن الفترة الحساسة لتحديد نموذج التوحّد الأول يكون بين الخامسة والسادسة من العمر . وهي المرحلة الأوديبية عند فرويد (Freud) . حيث يبدأ ، في هذه المرحلة ، حب الطفل لأبيه من الجنس الآخر . وبالتالي فإن الشروط النفسية والتربوية التي تحيط بالطفل في هذه المرحلة والتي ترسم حدود عملية توحّده وتقمصه هي التي تحدد في المرحلة اللاحقة وبشكل نهائي مواقف الفرد إزاء مجموعة من المسائل الأساسية : من السلطة والحب والتعبير عن الذات .

وتشرف هذه المرحلة على نهايتها مع بداية مرحلة أزمة ما قبل

البـلوغ ، أي حوالي الحادية عشـرة أو الثـانية عشرة من العمر . حيث يتأصّل الإحساس بالذات في هذه المرحلة . فالمراهق ، في هذه المرحلة ، يسعى إلى تحقيق ذاته ، ويُخضع امكـانيـاته للتجربة الواقعية . وهنا تبدأ مرحلة أخرى من التقمصات الجديدة ولا سيما في نهاية مرحلة المراهقة أو في مجراها . وهي المرحلة التي يطلق عليها دوبيس (M.Debess) « أزمة الشباب » .

ويمكن للشـروط السيكولوجيـة التي تحيط بالفرد أو ما يمكن أن نطـلق عليـه « المناخ السيكولوجي » ولا سيما الإخفاقات العاطفية التي يعـاني منهـا أن تحدد الشخصية في كل مرحلة من مراحل تطورها . إذ يمكن لبعض الراشـدين أن يعيش تقمصـات طفولية وذلك لأن نضجه العاطفي قد توقف في مرحلة معينة .

من المعروف أن طريقة خروج الطفل من العقدة الأوديبية يحدد له مواقفه اللاحقة من السلطة والحب والعلاقات الجنسية كما تحدد له امكانياته في تأكيد ذاته .

في سيـاق تحليـله لظاهرة التمرد في مراحل العمر المختلفة ، يشـير ستيفـان (A – stephane – ١٩٦٩) إلى قصـور في مستوى نضج الهوية المتمردة ، وذلك لأن نموها سُجِّل في مرحلة محددة تقع في وضعية النمو الأوديبية التي وجهت بطريقة سيئة وفي مناخ مشحون بالصعوبات .

فالشخصية المتمردة تعارض كل أشكال السلطة وتشكل مصدراً للسلطة بذاتها . ولا يمكنها أن تأخذ بعين الاعتبار الاكراه الطبيعي الذي

يفـرزه الواقع . إذ يتمـيز فعـل الشخص بـالنزعة النقدية والتدميرية . فالاحتجاج والتمرد يشيران إلى نقص يعتري الثقة بالنفس وإلى نرجسية ذات طابع خاص . ويتبدى ذلك عندما يعلن ذلك الشخص وبطريقة معقدة عن تملك قدرات غير موجودة فيه . وهو يلعب السيناريو نفسه في مختلف مراحل حياته . وتلك هي وضعية تعزى إلى ذلك الطفل في مرحلته الأوديبية الصعبة والتي لم يستطع تجاوزها حتى في هذه المرحلة من نضجه ، ولا سيما معاناته لإجحافات السلطة الأبوية في المرحلة الأوديبية .

ويمكن لبعض الاضطرابات في الشخصية أن تظهر عندما لا تتحقق الشروط الطبيعية لعملية التوحد مع الأب من الجنس الآخر أو مع من يمكن أن يحل محله . ويعود الإخفاق في تحقيق التوحد ربما إلى عملية رفض عاطفي من قبل النموذج التقمصي (الشخص المرغوب) وإلى الإحساس بالذنب والقهر والكبت وإلى علاقة عاطفية متموجة لا استقرار فيها ، أو إلى غياب النموذج نفسه . فالشخصية المعقّدة المُشكِلَة هي في نهاية المطاف شخصية مقهورة نفسياً ، وذلك تحت تأثير مشكلات تتعلق بالنماذج التوحدية ، وهي شخصية غير قادرة بالفعل على تأكيد الذات خارج إطار السلوك المتصلب الذي يوظف إزاء وضعيات تثير حالة اللا تكيف وتوقظها .

تتعين عقدة الخصاء في صعوبة تأكيد الذات بطريقة مستقلة ومسؤولة . وتكون الشخصية المقهورة في هذه الحالة نتاجاً للعنف الخصائي الذي يمارسه الأبوان ، واللذان يمنعان الطفل من أية ممارسة فعالة

طبيعية ويحافظون عليه في وضعية طفولية من التبعية المطلقة التي تسودها مشاعر حب قلق مفرط ومشاعر خوف من فقدان ذلك الحب . ولذلك فإن أيّة محاول يبذلها الطفل لتحقيق ذاته تعدّ ممنوعة يعاقب عليها ويُصدّ وهي عقوبات تبدو غير موضوعية أو عقلانية بالنسبة للطفل وذلك على مبدأ (سأحبك أكثر إذا فعلت ذلك ...) .

وإذا كانت عمليات التوحد الطفولي أساسية في عملية تشكل الشخصية الراشدة فهي ليست العمليات الوحيدة الممكنة لبناء الشخصية . إذ توجد بالإضافة إلى ذلك نماذج متجددة لتوحد يستمر طيلة حياة الفرد . ففي كل مرحلة ، وفي كل عمر ، وفي كل وضعية ، يتبنى الفرد نماذج توحدية تقمصية جزئية أو كلية . بعض الأفراد ، وعلى مدى حياتهم المهنية ، يتقمصون سمة ما من سمات أحد أصدقائهم أو يجعل من هوية ذلك الصديق نموذجاً مثالياً نموذجاً مرغوباً ويحاول أن يتطابق مع شخصه ويتقمصه كلياً . ويعد الاتزان من السمات الأساسية التي تشير إلى نضج الهوية وتكاملها . وهي سمة تشير أيضاً إلى قدرة المرء على التعبير عن نفسه وتأكيد ذاته دون صعوبة تذكر .

ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية ، في أعوام السبعينات ، منهج علاجي لتطوير الشعور بتأكيد الذات ، وتطور ذلك المنهج في فرنسا تحت اسم (منهج الثقة ـــ Methode d'assurtivenesse) . وعلى العموم تهدف هذه المحاولات إلى بناء نماذج سلوكية جديدة متكيفة مع غايات نظرية وإلى تجريب هذه النماذج السلوكية في المواقف الصعبة . وعلى ضوء ذلك تتحول عملية التوحد إلى

عملية مدروسة ومجربة .

إن بنـــاء هـويـة الجمــاعـة يمكن أن يقـوم على أســاس عمـليـة التوحد مع جماعة مرجعية أخرى وذلك ينسحب على مستوى البناءات والتقمصات الثقافية وهو موضوع سندرسه لاحقاً .

وتشكل الجماعة المرجعية جماعة نموذجية تنطوي على المعايير والقيم والأراء ونماذج للسلوك المرغوبة ، ويمكن لهذه الجماعة أن تكون جماعة خيالية أو واقعة أو تاريخية أو أسطورية . وتقودنا عملية التوحد في مستوى الجماعة بالضرورة إلى الحديث عن عملية التوحد الثقافي أو عملية توحد جماعة ما مع النواة الثقافية لجماعة أخرى .

ب ــ التقمص الثقافي :

يستطيع الفرد كما لاحظنا آنفاً أن يجد نماذجه التوحدية في خضم الوسط الاجتماعي الذي يحيط به . وذلك في سيـاق الحاضر أو الماضي (التوحد مع شخصيات تاريخية) . وذلك التوحد في هذا المستوى توحد فردي شخصي .

ويمكن للفرد أن يخرج عن اطار ذلك التوحد وذلك عندما ينظر إلى معايير وقيم وسلوك جماعة أخرى غير جماعته بوصفها نموذجاً مرجعياً له ، ويمكن له بالتالي أن يسعى إلى تحقيق التكامل مع ذلك النظام الثقافي المرغوب .

وتنسحب هذه العمـليـة الخاصــة بالتوحد الثقافي على مستوى

الجماعات والمجتمعات الانسانية والثقافية . ومثال ذلك تقمّص أعضاء جماعة ما لنموذج ثقافي مشترك يضمن للجماعة وحدتها الرمزية . وتتطلب الرقابة التي تنظمها جماعة ما ، من أجل تحقيق التوافق بين أفراد الجماعة والنظام الثقافي السائد في الجماعة ، من الفرد أن يؤدي نشاطاته وافعاله تحت رقابة الآخر ، وهو « آخر » عام لا متعين (G.H.Mead) . ويتم مثل ذلك التوحد الثقافي خلال مرحلة التنشئة الاجتماعية بكاملها .

ويمكن لعملية التوحد هذه أن تتم من خلال المشاركة في فعاليات ايديولوجية محددة . إذا رأينا مع مانهايم (Mannheim) بأن الايديولوجيا تقدم امكانية تفسير الوضعية التي ليست نتاجاً للتجربة الحسية المجسدة ، بل للحالة الخاصة بمعرفة مشوهة للتجربة ، والتي تهدف إلى اخفاء الوضعية الحقيقية التي تمارس إكراهها على الفرد . يمكن لنا أن نقول بأن أيديولوجيا الجماعة تسير وفقاً لأنظمة الرأي العام للأفراد ، والتي أشار فيستنجر (Festinger) إلى قدرتها على مقاومة الأفكار المضادة . فالمشاركة في النشاطات الجمعية والايديولوجية للجماعة نشاط يتوافق مع الهوية الجماعية ويعزز الإحساس بالقوة والوضوح كما يسمح بابعاد الشك الذي يولد تحت تأثير افعال تثير القلق والخوف عند أفراد الجماعة . فالايديولوجيا تنطلق من معطيات هوية ثقافية أو جماعية . وهي هنا تناشد الـ (نحن) وتتوافق مع عملية التوحد الجمعي .

وقد تتم عملية التوحد الثقافي لجماعة ما وفقاً لنماذج الأساطير أو لمراحل تاريخية بأبطالها . فالأسطورة هي نموذج خاص لقصة كتبها مؤرخو الآلهة في أثينا القديمة .. وذلك يعني أنها حكايات أبطال وهي ليست

حكايات عادية أو قصص أو تاريخية . إذ يعترف الناس بمصداقيتها وهي تروي لنـا أشـيـاء لا يمكن لها أن تكون تاريخيـة حقـاً وذلك لأنها غير صحيحة أو واقعية .

يبـين التحـليـل البنيـوي للأسـاطـير والذي أجراه ديميزيل (G.Dumezil) وليفي ستروس (C.Levi. Strauss) أن الأساطير نتـاج منظـم لخيال جمعي وتعبير عن لا شعور جمعي وهو يعطي دلالة ومعنى لعناصر الحياة المادية والنفسية الخاصة بجماعة ما . فالبنى المشتركة التي توجد تحت غطاء الأساطير الخاصة بمجتمع ما تتوافق مع النسيج الداخلي للذهنية الجمعية الخاصة بالجماعة .

هذا وتؤدي الأسـطورة وظيفـة اجتماعيـة في مختـلف المجتمعـات الانسانية (مالينوفسكي — Malinowski) فهي تعبر عن العقائد وترفع من شأنها وتحافظ على المبادىء الأخلاقية ثم تعززها . وهي تضمن فعالية المراسـم الطقوسيـة وتزود النـاس بالمبـادىء العمـلية في مجرى حياتهم . باختصار تعمل الأسطورة على تعزيز التلاحم في إطار جماعة ما وذلك من خلال التأكيد على العناصر الثقافية الأساسية للهوية . ومن ثم فإن الدعم الذي تقدمه هذه الأساطير يتيح للجماعة أن تؤكد تماسك هويتها وأن تدفع اعضاءها للمساهمة في المشاركة في بناء الذهنية اللا شعورية .

سـنرى ، عندما ندرس مسـألة الشعور بالهوية ، كيف تنشـأ العناصر المكونة لها ، وذلك من خلال الاحساس بالاستمرارية الزمنية . فالفاعل الاجتماعي (أكان جماعة أم فرداً) يلاحظ استمراريته الذاتية في إطار الزمن وتواصله في مختلف المراحل الزمنية لحياته .

تتشكل الهوية وتأخذ هيئتها بالاستناد إلى الماضي . ويُشكل ذلك الماضي بحد ذاته تاريخ الجماعة أو المجتمع . وينسحب ذلك على الهيئة الاجتماعية على حد تعبير شونو (١٩٧٨ Chaunu –) كما ينسحب على الأفراد الذين يكونونه . إذ يؤكد المجتمع هويته عبر التكامل الزمني وبالتالي فإن وعي الذات يشتمل على وعي الماضي . ويؤكد لنا ذلك المؤرخ أن أزمة المجتمعات الغربية تكمن بداية في مرض الذاكرة لديها بالتالي فإن أية محاولة للعلاج يجب أن تنطلق من مبدأ العودة إلى الماضي .

تتكون هوية الجماعة إذن عبر عملية تَمثُّل مستمرة لتاريخها . وبالتالي فإن عملية التحويل الثقافي واستحضار الماضي الجمعي وتجارب النجاح والفشل للجماعة ، وسلوك أبطالها النموذجي عوامل تسهم في عملية بناء الهوية الثقافية للجماعة . فالتاريخ يسهم عبر الأسطورة والرواية والأعمال الفنية والطقوس في خلق هوية الجماعة وصياغتها كما هو الحال بالنسبة للنمط التربوي السائد الخاص بالأجيال المتلاحقة .

٧ ــ الشعور بالهوية:

استعرضنا حتى هذه اللحظة العلاقات التي تربط بين مختلف أسس الهوية ومنطلقاتها والمشكلات التي تواجه نموها وتعترضه . وسنعمل الآن على استجلاء مشاعر الشعور بالهوية الذي يوجد عند الأفراد والجماعات وفي اطار الثقافات في آن واحد . وسننطلق في تحديد ذلك عبر المفاهيم النفسية ــ الاجتماعية » التي يمكنها أن تساعدنا في تحديد دقيق لمكونات الشعور بالهوية .

يميز وليم جيمس(W.james ــ ١٩١٠) بين « الأنا » (Moi) كموضوع للمعرفة والتي تتكون من « الأنا » الاجتماعية و« الأنا » الأمبيريقيه و« الأنا » (Je) العارفه . فالأنا هي الصورة التي نُكوّنها عن ذاتنا أو عن الآخرين آخذين بعين الاعتبار جملة من السمات النفسية .

تشتمل « الأنا » الأمبيريقيه على كل ما يمكن أن يعزيه المرء إلى نفسه من أشياء (أنا المادية): الجسد، والقدرات النفسية، والثياب ، الزوجة ، والأطفال ، والأسلاف ، والأصدقاء ، والأعمال ، وأرقام الحسابات البنكية الخ . وتولّد هذه الأشياء المملوكة انفعالات ومشاعر

توجد في أصل المعرفة القيمية وتؤدي إلى ردود أفعال دفاعية .

وتعود ماهيـة الأنا الاجتماعية إلى جملة من الاعتبارات الحاصـلة بالقياس إلى مختلف الفئات المعرفية الأخرى . إذ يملك الانسان وجوهاً عديدة للأنا الاجتماعي تتعدد بتعدد آراء الآخرين . ومع ذلك يتصـدر هذه الوجوه الأنوية المختـلفـة وجه له مقـام السيـادة . ويتمثل ذلك في الصورة التي يحددها الشخص الأهم في حياة الفرد . فالإحساس بالقيمة الأنوية يوجد في أصـل مختلف المشاعر مثل: الحب الخاص ، خيبة الأمل ، الغرور الخ ...

وينطوي كل من « الأنا » الأمبيريقي والأنا الاجتماعي على جانبين هما: « الأنا » الحالي الفوري المحدد ، و« الأنا » المضمر البعيد غير المحدد وقد يكون ذلك الأنا أكثر أو أقل مثـاليـة وهو يتدخل ليوجه السـلوك وينظمه .

وتعـد « الأنا العـارفة » « Sujet » المبدأ الذي يصف الحالات السيكولوجية الخاصة مثل: الشعور بالفرح أو بالغنى أو بالفقر . وينظر إلى هذه الحالات السيكولوجيه على أنها وضعيات استنتاجية وليس على أنها وضعيات تجريبية حقيقية . وبناء على ذلك تأخذ « الأنا » الواعيه الأنا المـادية كموضـوع لها . وينطوي « الأنا » المـادي على شعور بالوحدة الوظيفيـة والجسـدية . ويبدو كمصـدر للنشـاط والحركة والعقلنة التي تسجـل حضـورها الدائم . إن تجاوز الأنا العارفة sujet لمحدودية الزمن ولصيغته الوقتية يعطي الأنا المادية objet الشعور بالديمومة .

ويميز ميد (G.H.Mead — ١٩٣٤) في هذا الخصوص بين ثلاثة

مستويات للأنا (moi – je – soi) . ينطوي المستوى الأول (moi) على مجموعة من أدوار الآخرين التي تم تمثّلها من قبل الفرد . ويعد ذلك « الأنا » الوسيلة التي ينعكس فيها المجتمع في داخل كل فرد منا والتي يمارس عبرها رقابته على أفعالنا .

ويتضمن « الأنا » الثاني (je) ، وعلى خلاف الأول ، كل ما هو شخصي في سلوكنا ، وينطوي على عنصري العفوية والابداع . وهذه « الأنا » هي التي تستجيب إلى متطلبات الوضعية الاجتماعية بالصيغة التي تنعكس فيها في « الأنا » الأول (Le moi) .

ويعكس « الأنا » الثالث (Le soi) امكانية وعي الذات وذلك لأنها نتاج للتفاعل الديالكتيكي بين « الأنا » الأول (moi) و« الأنا » الثاني (je) هو بالتالي مشبع بالمعايير الاجتماعية ، وله نواة مشتركة بين أعضاء المجتمع نفسه ، وذلك لأنه يتشكّل في سياق التفاعل الاجتماعي ويعمل على توجيه السلوك الاجتماعي وتنظيمه . ويأتي وعي « الأنا » من خلال الخيارات التي يخصها لنفسه وبشكل مباشر وذلك عندما يضع نفسه في مكان الآخرين وينظر إلى الأشياء من منظارهم ، ولا سيما هؤلاء الذين ينتمون إلى جماعة انتمائه .

ويستطيع ذلك الأنا (SOI) أن يتنبأ ويستبق ردود أفعال الآخرين . وهو يفكر في نتائج الأفعال التي يؤديها الجانب الفاعل ويتدخل من أجل تغيير نسق الأفعال وتوجيهها . ويعني ذلك كله أن وعي « الأنا » في هذا المستوى ينطلق من القدرة على ادراك مواقف الآخر تجاه « الأنا » والشعور بها .

ينطلق ادراك « الأنا » (الذات) كما يرى هيربرت ميد (H.Mead) أساساً من عملية تحول الفرد نفسه إلى موضوع لأناه وذلك بمقتضى العلاقات القائمة مع أفراد آخرين . وذلك يعني أن ادراك الذات هو نتاج للعلاقة بين الأنا المادية (moi) و« الأنا » العارفة (je) . وفي اطار هذا الجدل فإن «الأنا» المادية هي الوحيدة التي تَمثُل بشكل مباشر في مرآة الوعي ، بينما ليس هو حال « الأنا » العارفة إذ لا تسجل حضورها إلا عندما يطلب منها الاستجابة لمقتضيات « الأنا » المادي .

و« الأنا » كما يرى جوردن ألبورت (G.W.Allport — ١٩٣٧) هو وعي الذات والذي يَمثُل في داخلنا على صورة كائن يجعلنا نشعر ونعمل على توحيد حالات شعورية معيشه . لنفترض ، كما يقول اولبرت ، « أننا إزاء امتحان صعب وهام ، فإننا سنشعر بتسارع نبضات القلب وبتشنجات معوية: شعور بالذات الجسدية .

وعندما نشعر على التوالي بدلالة الامتحان ومغزاه بالنسبة لماضينا ومستقبلنا فإن ذلك يمثّل وعينا بهويتنا الزمنية: الاستمرارية الزمنية، ومن ثم يأتي دور التساؤل عن نتائج النجاح والفشل وتبدأ مشاعر الانتصار تدغدغ وعينا (وعي التقدير الاجتماعي لجماعتنا المرجعية) . وعندما نحصل على الشهادة فإننا نعرف بأن هذه الشهادة هي جزء من الشهادات الحاصلة (وعي الذات الخاص بالملكية) . ونحن نعرف كيف يداعب لنجاح والفشل طموحاتنا وتمنياتنا (وعي بتقدير الذات)؛ ونحن ندرك في الوقت الراهن السلوك الواجب علينا من أجل النجاح في الامتحان (الشعور بالقدرة على التفكير)؛ وأخيراً نقدّر أهمية هذه اللحظة

بالنسبة إلى مجموعة الأهداف التي نسعى إليها (الجهد المركزي) .

يرى ألبورت إذن أن الشعور بالأنا أو الهوية مركب من عناصر أساسية ستة هي:

١ ــ الشعور الجسدي .

٢ ــ الشعور بالهوية الزمنية .

٣ ــ الشعور بالتقدير الاجتماعي .

٤ ــ الشعور بالملكية .

٥ ــ تقدير الذات .

٦ ــ الشعور بالقدرة على التفكير والمحاكمة .

٧ ــ الجهد المركزي (اهتمام الكائن) .

وتأخذ هذه العناصر الستة مكانها وفقاً لنسق ظهورها الوراثي . وترتبط هذه الجوانب الأساسية للشعور بالهوية مع ضرورات أساسية وحاجات تضرب جذورها في عمق الطبيعة الانسانية: حاجة المرء للمتعة ، الحاجة إلى نقاط علام ، وإلى الملكية ، والاحترام ، والحاجة إلى المعرفة ، وأخيراً الحاجة إلى تعيين الأهداف وتحديدها .

إذ لا وجود للهوية ، كما يعتقد اريكسون (Erikson ــ ١٩٦٨) إلا من خلال مجموعة أحاسيس ذات صلة عميقة بالهوية وهي:

١) الشعور الذاتي بوحدة الشخصية .

٢) الشعور بالوحدة والاستمرارية الزمنية .

٣) الشعور بالمشاركة العاطفية .

٤) الشعور بالاختلاف .

٥) الشعور بالثقة الوجودية .
٦) الشعور بالاستقلال .
٧) الشعور بالمراقبة الذاتية .
٨) الشعور بالتقدير وذلك بالقياس للآخرين .
٩) الشعور بعمليات التفاعل والتكامل وقيم التقمص والتوحد .

ويمكن القول انطلاقاً من الرؤية التكاملية لمختلف الاتجاهات أنه يمكن للشعور بالهوية أنه يتفرع إلى سلسلة من الشعورات التي ترتكز إلى استمرارية عمليات التقيم وعلى عمليات التكامل ــ التوحيدي .

الشعور بالكينونة المادية:

(Le sentiment de son etre materiel)

يتطلب الشعور بالهوية على المستوى الفردي وعي جملة من المشاعر الجسدية الخاصة . فالرضيع كائن غير ناضج على المستوى العصبي الفيزيولوجي ولذلك فهو لا يمتلك على شعور بالهوية لأنه يعيش حالة من المشاعر اللامتمايزة .

فالنضج البيونفسي هو الذي يطور عند الطفل حواسه الخاصة مثل السمع والبصر واللمس والشعور الجسدي . وهي الحواس التي تسمح له بوعي متنام لوجوده المختلف عن أمه ، أي بهويته المادية . فالنمو الجسدي الذي يقود الطفل إلى وعي لوضعية جسده في اطار المكان يشكل عنصراً هاماً لبناء الشعور الجسدي . وهذا يعني أن جملة مشاعرنا هي التي تذكرنا دائماً بهويتنا (أي أننا نحن) لقد بينت تجارب الحرمان الحسي إلى أي حد

يصعب اثارة الكائن . وتبين التجارب التي أجريت على الأفراد الذين فقدوا حاسة الزمن وحاسة الاحساس بالألم بأنهم يعيشون في عالم تأملاتهم الذاتية وهم يشعرون بالفراغ المطلق والعدم . فالشعور بالوجود يرتكز على اثارات حسية ــ بصرية متواصلة ترسلها أعضاؤنا الحسية إلى الدماغ من أجل الادراك .

ويتمثل الشعور المادي، لجماعة أو ثقافة ما ، في الوعي المادي المشترك للأعضاء بالعناصر المادية لوجود الجماعة أو الثقافة ويتمثل ذلك في معرفة الأرض ، ومعرفة السكان ، ومعرفة مدى القوة ، والامكانيات ، ومعرفة الحيازات المادية الأخرى .

أما بالنسبة للجماعات المتجاورة أو المتحركة فإن الشعور بالهوية المادية ينطلق من ادراك لحضور أعضاء آخرين ، ومن خلال شروط مادية فيزيائية ، وهي الشروط التي توجه القدرات المادية الكائنة في اطار الجماعة . ويبلغ مثل ذلك الشعور أشده داخل جماعات العصابات ويتحول إلى شعور بالقوة يتعلق بمسألة الانتماء إلى الجماعة . فكل واحد في اطار العصابة يشعر بالقوة وذلك لأنه يتوحد مع قوة الجماعة ويتمثلها .

ويكون الشعور بالهوية المادية بالغ الحيوية ولا سيا في الجماعات التي تعطى للفرد شعوراً بوجود اشباه له داخل الجماعة . ويكون ذلك من خلال الشعور المشترك والمتبادل بين الفرد وبين الآخرين من أعضاء الجماعة . وذلك يسمح للفرد أيضاً باكتشاف السمات المشتركة الخاصة بالهوية الجمعية . حيث يتاح لكل فرد في اطار هذه

التحشدات أن يقدر أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين أعضاء الجماعة الآخرين .

شعور الانتماء:

(Le sentiment d'appartenance)

يتمثّل شعور الانتماء على المستوى الفردي في صيغة « الأنا » (Le moi) كما يحدده جورج هيربارت ميد (Goerge .H .Meade) . ويتجسد هذا الانتماء على المستوى الجمعي في روح الجماعة أو في شعور التضامن الاجتماعي .

وتعدّ العلاقة الأولية التي تربط بين الرضيع وأمه مصدر الشعور بالانتماء . وغني عن البيان أن الرضيع لا يستطيع أن يتمايز عن أمّه في المرحلة الأولى من عمره ، ويصدر عن هذه العلاقة الأولية شكل من أشكال الهوية الجمعية التي تجمع بين الصغير وأمه وهي صيغة « نحن » (Nous) . وهو ضمير الجمع المتكلم . ويضرب مثل ذلك الشعور جذوره بعيداً داخل الحياة الجمعية للمجتمعات الأوليّة حيث لا يكون للجماعة أكثر من الحقيقة الفردية ولا يكون للفرد وجود إلا من خلال الجماعة ومن أجلها . وهي بالتالي المسؤولة عن تنظيم تفكيره وسلوكه .

ويأتي الشعور بالانتماء كنتاج لعمليات التكامل الاجتماعي ولعملية تمثل القيم الاجتماعية السائدة في اطار الجماعة . . . وذلك لأن الكائن الانساني يعيش في وسط اجتماعي يغمره بمعاييره ونماذجه السلوكية .

ويشكل ذلك الوسط الثقافي المتجانس بالنسبة لافراد الجماعة الواحدة منطلق التواصل الاجتماعي . ويلاحظ ذلك التجانس الثقافي في

أوقات الهيجانات والاندفاعات الجماعية حيث يطرح الشعور بالهوية الجمعية ثقله. وذلك يعني أن السلوك المشترك يسهم في خلق دائم لشعور بالوحدة يتجلى في صيغة الـ « نحن » « nous » الاجتماعية .

عندما يتعرض التواصل الأولي بين الطفل وأمه أو بين الطفل وعائلته للقطيعة أو التشويش والذي يتمثل في رفض الطفل ونبذه فإن ذلك يجعل من الطفل في المستقبل عرضة لاضطرابات مرضية في هويته (spitz – paiay) . إن ابعاد الطفل واقصائه يؤدي إلى حرمان الطفل من استحواذ هويته المتكامله في مختلف المراحل العمرية المختلفة لحياته . ومن هذا المنطلق تؤكد الدراسات السوسيولوجية حول البطالة والعنف أهمية الدمج المهني والاجتماعي لتكوين الشعور بالهوية .

ولا يمكن للشعور بالانتماء أن يوجد بعيداً عن دائرة المشاعر المكونة لشعور الهوية . فهو يرتبط على سبيل المثال بالشعور الخاص بالقيمة وشعور الثقة بالنفس . ويشكل التضامن الانساني مكوناً أساسياً من مكونات روح الجماعة (Esprit du group) . وبالتالي فإن روح الجماعة ، مهما يكن شكلها سواء أكانت روح الطبقة أو الفئة أو الفريق أو العشيرة أو العائلة ، هي قبل كل شيء شعور بالانتماء . وتتضمن روح الجماعة الانتماء إلى المعايير والأهداف وتنطوي على التلاحم ، والتماسك ، والصدق ، والثقة بالجماعة ، والاعتزاز بالانتماء إليها ، وتقدير الروابط الاجتماعية القائمة فيها . وتصب كل هذه الانماط السلوكية في اطار المشاركة العاطفية والوجدانية للجماعة . وتأخذ المشاركة الانفعالية في اطار الأسرة ولا سيما الطقوس الخاصة باجتماعات العائلة صيغة قنوات

لاتصـــال العـــاطفـي الدائم وينسحب ذلك على طقـوس الأعيـاد والاحتفـالات التـذكارية . فـاجتماعـات الجمـاعة تتحول إلى مصـدر للعلاقات العاطفية الجمعية وهي تؤدي إلى تحقيق الوحدة العاطفية لأفراد الجمـاعة الذين يرتفعون من أجل تحقيق هذه الوحدة فوق التناقضـات الصغيرة والتعارضات التي تظهر بينهم .

ومن أجل ذلك يجري العمل على حل الخلافات القائمة وخفض درجة التوتر ومحوه إذا أمكن ذلك . ومن هنا فإن التجارب المشتركة تأخذ قيمتها الخاصة وتصبح مصدراً لذكريات الجماعة الجميلة الخاصة بالماضي المشترك ، والذي يصبح منطلقاً جديداً للبحث عن تجارب جديدة أخرى مشـتركة أيضـاً . وذلك مثـل أداء بعض الأعمال المشـتركة كالرحلة المشـتركة إلى مكان ما . وهي أفعال لها قيمتها وأهميتها وعلى الخصوص بالنسبة للصغار الذين ما زالوا في طور البحث عن هويتهم الشخصية . إن هذه التجارب المشتركة تؤدي إلى وحدة الذاكرة الجمعية ووحدة الماضى الجمعي وتعزز بالتالي الوحدة العاطفية للجماعة .

شعور الوحدة والتماسك:

(Le sentiment d'unit et de coherence)

يكمن خـلف التعددية في وضعيـاتنـا المختـلفـة انطبـاع بالوحدة والتماسك . فهناك شيء ما يؤكد وحدتي الحاضرة ووحدة الشخصية على الرغم من تعدد الأدوار التي تؤديها في اطار الظروف الاجتماعية المحيطة . فالشعور بالوحدة على حد تعبير سارتر هو امكانية دائمة لرفض الماضي والتساؤل الدائم عن الكينونة الذاتية ، وهو القدرة على تغيير طريقة اداء

الشخصية التي لعبت أدوارها بما فيه الكفاية ، أي القيام بعمل يصدر عن الذات نفسها . ويرتكز الشعور بالوحدة على شيء ما تكوّن تدريجياً في داخل البنيـة النفسيـة والتي ينظر إليهـا بوصفها حصيلة لكل التجارب العـاطفيـة والعقلية والذهنية أو للبنية المعرفية . وتعمل هذه البنية ، التي تتضمن نظاماً من المسلمات الوجودية ، على توجيه الادراك بين خيارات الفرد وتوجه سلوكه ، وباختصار فهي تؤكد التكامل النهائي لوجود الفرد الانساني ووحدته .

إن الحاجة إلى التكامل الداخلي للنظام (النفسي أو الثقافي) عند الفرد يتـأكد من خلال تجارب المقـاومة النـاجمة عن قلق يتعـلق بتغيير الأسس المرجعية النفسية . أو ضد محاولات تعديل السلوك ازاء التغيرات المعرفيـة المستدخلة ضمن نظام العقائد الخاص بجماعة ما (فيستنجر) . فالتنافر الايديولوجي يتطلب جهداً لتعديل السلوك وذلك على مستوى الجماعة أو الثقافة . حيث يحاول الزعماء والمتفوقون نفيَ القيم الجديدة أو تبرير استمرارية الوضعيات القائمة الخاصة بنظام تفكير الجماعة ، وتلك هي احدى الوظائف الأساسية للزعماء والتي تعزز عملياً وبشكل محسوس وحدة الجماعة وتماسكها . ومن هنا فإن فقدان الزعامة الكارزمية ، التي تحقق للجمـاعة وحدتها وتماسكهـا حول هدف مشـترك ، يعد اصـابة حقيقيـة تتنـاول وجود الجمـاعة وهويتهـا . فالانقســام والانفجـارات والانشطارات تشير إلى موت الجماعة وفنائها .

ويشتمل النظام المعرفي على نسق من القيم الذي يعمل بدوره على توليد القناعات الفردية وتحديد مشاعر الفرد ومشاعره على نحو لا يستطيع

الفرد فيها أن يسلك بطريقة أخرى مخالفه تجاه هذه المشكلة أو تلك .

وتشكل التجربة المعيشة عنصراً نفسياً بنيوياً لشعور وحدة الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية (والأسس المرجعية هي هنا المعايير المشتركة) .

ويتطور هذا الجانب من شعور الهوية منذ السنة السابعة من عمر الطفل ، وذلك عندما يبدأ الطفل بطرح أسئلة حول الحقيقة ، وعندما يبدأ استنتاجاته المتتابعة انطلاقاً من تجربته الخاصة . ويستطيع الطفل فيما بعد العاشرة من عمره ، أي بعد مرحلة تكون مفهوم الضرورة والصدفة لديه أن يعيش تجربة الثقة بالنفس (تكامل منطقي لعقائده) ، وهي تجربة تعزز هويته وتصلّبها .

ومن المؤكد أن هناك مظاهر مرضية تعتري الهوية في ثقافتنا الغربية اليوم ، وهي ناجمة عن انحلال الشخصية والشعور بالقطيعة. وتأخذ هذه المظاهر صيغة: ازدواجية الشخصية ، والعقد التي تفرض على الفرد سلوكاً انحرافياً يخالف السمات الأخرى للشخصية .

الشعور بالاستمرارية الزمنية:

(Le sentiment de continuife temporelle)

يتمثل ذلك الشعور في احساس الفرد بوحدته الزمنية وشعوره بوحدة مراحل حياته المختلفة . فالتباينات الزمنية لهويته موجودة ولكن لا يوجد هناك أي شعور بقطيعة وجودية .

ويرتبط شعور الاستمرارية ، في اطار ثقافتنا ، بالصورة التي توجد عن الزمن الذي يجري دون انقطاع أو توقف . ويأخذ الشعور

بالاستمرارية أهمية كبيرة وذلك لأن التغير يأخذ اتجاه القانون فيما عدا ذلك . فأنا أذكر أفكاري وأعمالي في الأمس وأدرك بأنها أفعال تخصّني . ويقوم ذلك الشعور بالاستمرارية الزمنية في جانب كبير منه على أساس استمرارية الوجود المادي الجسدي إذ لا يشعر الفرد بالتغيّرات النوعية الحاصلة فيه والتي تؤدي ربما إلى تغيّر في شكله أو حجمه بين عشية وضحاها . وينطلق ذلك الشعور أيضاً من عملية اعادة اكتشاف الحالات الواعية المتعاقبة والتي تجعلني أدرك استمرارية هويتي وتواصلها عبر الزمن .

ويستند الشعور بالاستمرارية الزمنية أيضاً على الذاكرة وعلى الخصوص على النشاط النفسي المستمر الذي يربط بين آمال الفرد ويكامل بينها ، وذلك بتوسط النظام العرفي . لقد تَغَيَّرْتُ في مجرى حياتي التاريخية ــ وذلك في ما يخص جسدي وحالاتي وأدواري ــ ولكن وضعيتي النفسية تتكامل دائماً وتكامل بين المعلومات التي أملكها عن نفسي وعن الآخر . يقول هيوم (Hume) « إن خيالنا في اطار قدرته على المكاملة يعطينا الشعور بالاستمرارية والتواصل الزمني » .

ويحافظ الشعور بالهوية على استمراريته بالقدر الذي يعطي فيه الشخص أو الجماعة للتغير والتبدل صبغة الاستمرارية والديمومة . وعندما تظهر التباينات على شكل انقطاعات حادة فإن ذلك يؤدي إلى ازمات الهوية .

إن ادراك الجماعات للعناصر المشتركة والتي تندرج في التاريخ المشترك لكل جماعة يؤدي إلى ولادة الاحساس بالهوية الجمعية ونموه .

فالشعور بالهوية الجمعية ينطلق من ذكريات تتصل بالتجارب الانفعالية والوجدانيـة المشـتركة . وما يحدث في اطار الجماعة يرتبط بأحداثها الماضيـة: العـلاقة السـابقـة بين شخصـين ، الأدوار الجديدة ، الملل الاجتماعي الخ . . إذ يملك كل فرد في الجماعة وعيه الخاص وهو يؤثر في الحياة الجمعية الحاضرة من خلال الحياة الجمعية السابقة .

ويمكن لهويـة الجمـاعات الكبـيرة الواسعـة (التي لا توجد فيها علاقات اجتماعيـة مبـاشـرة كالعـلاقة وجهاً لوجه التي توجد في داخل الجمـاعـات الصـغـيرة كالأسـرة مثـلاً أن تولد وذلك لأن أفراد هذه الجمـاعـات يدركون تـاريخهـم الجمـاعي المشـترك . فالاعلام وقراءة المنشورات الخاصة بالتاريخ المشترك يطلق العنان لسلسلة من النشاطات والفعاليات ويعزز بنية الهوية الاجتماعية : بناء اتجاهات جديدة أو اتحادات واجتماعات ومؤتمرات الخ .

ومن هذا المنطلق يمكن النظر إلى أعمال المؤرخين في اطار ثقافة ما بوصفه تفسـيراً للاستمرارية الزمنية الثقافية وذلك عندما يحاولون تفسير التغـيرات والتحولات (المادية والثقافية) التي حدثت في اطار المجتمعات الانسانية . إذ لا يوجد ما هو مشترك بين فرنسا في عصر لويس الحادي عشر مع فرنسا اليوم . ولكن الهوية الثقافية الفرنسية تجد أسسها في مجمل الوضعيات التاريخية الأكثر تجانساً .

الشعور بالتباين:

(Le Sentiment de difference):

يمثـل ذلك الشعور منطلق مشـاعر التفرد والوحدة . فالشخص

الذي يمتلك هوية شخصية لا يستطيع أن يفكر بطريقة مطابقة تماماً للآخرين . فهو آخر (غيرية) ، حيث لا يمكن للمحاكاة أو للتقارب بين الأفراد أن يكونا مطلقين . وعندما يحدث ذلك فإنه يعني فقداناً للهوية يكون لصالح هوية أخرى .

وفي هذا الصدد يشير الخبراء المتخصصون بدراسة جماعات الشباب ، وذلك منذ خمسة عشر أو عشرين عاماً ، بأنه يمكن لأحد الشباب أن يصبح « هيبياً » كردود فعل عنيفة ضد والديه ، وفي أيامنا الحاضرة يمكن له أن يصبح « بينكياً » pundc من أجل أن يتميز عن أخيه الاكبر أو أخوته أو زملائه في المدرسة . وتعد هذه العمليات صياغة جديدة ، أو وسيلة ، لعملية تمايز عن الآخرين .

فالشعور بالاختلاف يعدّ اساسياً من أجل وعي الهوية ونموّها . ومن هنا فإن الرضيع لا يستطيع أن يجد هويته وذلك لنقص في قدرته على التمايز وخاصة في اطار العلاقة اللاتمايزية التي تربطه بأمه . وعندما يبدأ الطفل بتعلم الأدوار الاجتماعية فإنه لا يكتفي بتمثّل أدوار الآخرين فحسب بل يتعلم كيف يمكن له أن يؤدي هذه الأدوار بطريقته الخاصة المختلفة . وهو يدرك الاختلاف القائم بين الأدوار التي يحاكيها وأدائه الخاص لهذه الأدوار ، وهو بذلك يؤدي تجربة تمكّنه من الشعور بوحدة هويته الشخصية: فهو كائن واحد على الرغم من تعدد الأدوار التي يؤديها .

ويكون الشعور بالتباين بالغ القوة عادة ، ويمكن ادراك دلالة ذلك باستحضار هذه الطرفة التي يرويها زازو (zazzo): طلب زازو من توأم

متشــابه في سن العـاشرة أن يحضر (لكل فرد منهما) صورة لتوضع في ملفه ، احضر أحدهما صوراً متعددة له ، ولم يكن لدى الآخر مثل هذه النماذج ، وعلى الأثر طلب زازو من الطفل الذي أحضر الصور أن يعطيه صورتين من نموذج واحد واحدة له والأخرى لأخيه ، وعندها وبصوت واحد احتج الطفلان قائلين: هذا غير ممكن . وعندما قيل لهما لماذا ألا يجب أن يُعرّف أحدكم من خلال هذه الصور إذ يمكن لكل منكم أن يكتب اسمه على ظهر الصورة . وعندها أجابا نحن متشابهان حقاً ورغم ذلك نحن لسنا كذلك ولا يمكن أن نعطيك صورة واحدة لكلينا . ومن أجل تجنب هذه المشكلة وعد الطفل الثاني أن يذهب ويصوّر نفسه فوراً وأن يحضر نموذجاً لصورته .

يقع مفهوم الشعور بالتبـاين في دائرة ما يطـلق عليـه أريكسون (Erikson) « الهوية السلبية » (Idetité négative) . إذ عندما يعي الفرد هويته التي تشتمل على وحدته ، وانتماءاته ، وتبايناته ، وقيمه ، يكون قد كوّن تصوراً ، أكثر أو أقل وضوحاً ، عن هوية أخرى سلبيه وذلك بناءً على سمات ومواصفات نوعية يرفضها ويتجنبها . وتقتضي مثل هذه الهوية السلبية بالضرورة وجود هوية ايجابية مرافقة لها . وهي بدورها تسهم ، كما هو حال التعارضات الأخرى الخاصة بالهويات الفردية الأخرى ، في بناء الوعي الخـاص بـالهويـة . فـالوجود الخاص ، كما لاحظنـا ذلك في واقع الأمر ، يولد على أساس التعارض مع كيانات وجودية أخرى . ومن هنا بالذات يترك الشعور بالتباين اثره على الشعور بالوجود .

ويؤدي الشـعـور بـالتبـاين ، من هذه المنطـلق ، إلى بنـاء الهوية

الجمعيــة والثقـافيـة أيضـاً . إذ يدرك أفراد جماعة ما انتماءهم على نحو مختلف ، أي أنهم يدركون بدقه ما يميزهم عن الآخرين . وعندما يكون ذلك الادراك المتباين صعباً أو غير ممكن فإنه يفسح المجال لأزمة الهوية الجمعية .

فالشعور بالاستلاب الثقـافي يولد من خلال الشعور بتلاشي السمات الثقـافيـة المميزة تحت تأثير ثقافة أخرى تمارس نوعاً من الهيمنة والاكراه (انظر الفصل الثالث « استلاب الشخصية ») .

الشعور بالقيمة:

:(Le sentiment de valeur)

تُوجّه « الأنا » (Le Moi) فعالياتها ، كما يعتقد جيمس (James) من أجل أن تُعرف ويُعترف بها . وذلك يؤدي إلى تشكيل أنا مثالية تسعى للتحقق وهي جديرة أن تحظى باستحسان الضمير الأعلى (ضمير ينتهي بالاتحاد مع القوه العليا السامية: الله) .

هكذا يتحقق وعي الهوية الفردية ذاتيا بالنسبة لـ ميد Mead . ويتم ذلك بشكل غير مباشر عندما يتاح للفرد أن يتمثّل وجهات نظر الآخرين الذين ينتمون إلى الجماعة نفسها وهم هؤلاء الذين تعلّم أن يحاكيهم ، وهو وفقاً لذلك يحكم على نفسه من خلال النظرة التي يتوقعها من الآخرين .

لقد شكلت نظرة الآخرين والحكم الذي تنطوي عليه هذه النظرة موضوعاً لدراسات عديدة ، في مجال علم النفس الاجتماعي ولا سيما موضوع المرغوبية الاجتماعية (Disérabilité sociale) . ومن أبرز الباحثين

الذين باشروا هذه المسألة بالدراسة يمكن أن نذكر كل من: موكورت (Mauccort) ، وميلي (Meile) ، وديسبورت (Desportes) ، وكودول (Codiol) . وأسفرت هذه الدراسات عن نتيجة هامة وهي: أن كل فرد يسعى أن يكون ذو قيمة عند الآخرين وبالتالي فإن هذه القيمة تكمن في أحكام الآخرين . إن الشعور بالكينونة والوجود يكون من خلال تملك القيمة التي يمنحها الآخر بأحكامه ، وهي احكام دالة وجديرة بالاعتبار . أن يكون المرء كائناً ما من أجل الآخر عملية تترجم الرغبة في تملك الهوية على نحو قطعي .

ويأخذ الشعور بالقيمة أهميته على مستوى الجماعة أو الثقافة كما هو الحال على المستوى الفردي . ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال العمليات الدفاعية التي تعتمدها الجماعة عندما تتعرض القيمة الجمعية أو الثقافية للخطر والتهديد . ويلاحظ في هذا السياق أن التبخيس يجعل الجماعات ذات طابع عدواني . ومن هنا بالذات ينظر إلى أشكال العنف المعروفة تاريخياً كالحروب والانتقام والتمردات كانعكاسات لوضعية التبخيس . فتقدير الذات ، بالاضافة إلى البنية المعرفية وعمليات التقييم ، يشكل الشعور المركزي الخاص بالقوة الحيوية للشعور بالهوية .

ولا يوجد الشعور بتقدير الذات مستقلاً عن الشعور بالثقة والأمن الوجودي اللذين يشكلان موضوع استقصائنا لاحقاً . إذ يتطور الشعور بالقيمة ، في واقع الأمر ، بالعلاقة مع الشعور بالثقة الذاتية الذي ينشأ بتأثير العلاقة مع الأم (أريسكون Erikson) .

وتنشأ القيمة الذاتية بالتالي تحت تأثير عملية التكرار والربط

التكاملي المستمر بين مجموعة من التقييمات التي تشكل معطى التقدير الذاتي . وفي اطار هذا التقييم نجد تقديراً للتأثير الاجتماعي ، وتقديراً لأفعالنا ، ونجاحنا واخفاقنا ، ونتائج أفعالنا ، ومعايير هذه الأفعال ، وتقديراً للنموذج الخاص بذواتنا . إن فكرة المرغوبية الاجتماعية هي نتاج للمقارنة بين ما نعتقده كائناً والمعايير النموذجية للفعل ، وهي أيضاً نتاج لمقارناتنا مع الآخرين والمقارنة بين صورة الذات الواقعية وصورتها المثالية .

لقد بينت ابحاث علماء نفس الطفل ، وخاصة الأبحاث الانتربولوجية الثقافية ، كيف يكون الشعور بالقيمة الذاتية خاضعاً للمناخ العائلي التربوي . وذلك لأن المناخ العائلي التربوي هو نفسه الذي يشكل المنطلق للتقييمات التي تصدرها الأنا (أدلر (Addler) ، زينتون (Zinton) ميد (Mead) .

هذا ويضرب الشعور بالقيمة ، بالنسبة لثقافة ما أو جماعة ما ، جذوره عميقاً في مدى ما حققته هذه الجماعة أو هذه الثقافة من نجاحات واخفاقات في تاريخها القريب أو البعيد . إن تبخيس القيمة الأخلاقية لجماعة ما عملية تبدأ من النظرة الدونية التي تملكها هذه الجماعة عن نفسها وذلك عبر عملية تخريب القيم الخاصة بها ، أو من خلال تدمير عملية التقدير التي تضفيها الجماعة على فعالياتها ونشاطاتها أو على أناسها المميزين مثل أبطال الجماعة الذين يمثلون قيمتها ويجسدونها .

إن الشعور بالقيمة والذي يوجد في علاقة عميقة مع الشعور بالثقة يرتبط أيضاً مع ما يسمى « بالجهد المركزي » (Effort central) للشعور بالوجود . إذ يشارك شعور تقدير الذات في تحديد مستوى

الطموح أو في تحديد المواقف الأســاسية تجاه ما يمكن أن يحققه الفرد مستقبلاً وذلك على المستوى الشخصي . ومن هذا المستوى ، مستوى الطموح ، تنبعث طاقة التوجه ، أو الموقف اللاشعوري الدائم الذي يعمل على ربط الاهتمامات وتحقيق تكـاملهـا ووحدتها . ويعني ذلك القوة الدينامية الارادية الناجمة عن العمليات المعرفية . فالهوية كما سنراها في اطار علاقتها مع الشعور بالوجود تمثل شبكة من المحركات الدينامية التي تنطلق من مستوى الطموح ودرجته .

الشعور بالاستقلال:

(Le sentiment d'autonomie):

ينطوي الشعور بالهوية الشخصية على الشعور بالاستقلال كوجه آخر للشعور بالانتماء . فالانسان لا يستطيع أن يؤكد هويته الفردية إلا إذا استطاع وفي الوقت نفسه أن ينطلق من الشعور بالانتماء إلى جماعة يتجانس مع أفرادها (جماعة حقيقية أو خيالية) ، ومن الشعور بالاستقلال وذلك بالقيـاس إلى الهيمنـة الجمعيـة (الضمير الجمعي عند دوركهايم) للجماعة .

يبدأ الطفـل مرحلة استقـلاله عن أمه ، كما لاحظنا ذلك ، عبر عملية نضج نفسية عصبية مستمرة . ومن هنا فإن الشعور بالاستقلال يبدأ منذ السنـة الثالثة أو الرابعة من عمر الطفل . وذلك عندما يعيش الطفل تجربته الخاصة بـ « الأنا » (Je) (أي ظهور كلمة أنا منذ السنة الثانية من العمر) . وانطلاقاً من هذه المرحلة يبدأ الطفل بتكوين تجربته في حرية الاختيار ويدرك مفهوم الاحتمالات . فالادراك بأن حدثاً ما يمكن له

أن يقع كحالة احتمالية (ادراك لمفهوم اللاجبرية حيث يبدأ الطفل بعدها بالتفكير في الممكن والممنوع) يجعل الطفل قادراً على الشك ومن هنا تكون بداية النشاط العقلي عند الطفل: التفكير .

ويشكل جدل الاستقلال (الذوبان ــ والرفض) احدى المسائل الأساسية للانسان المعاصر . وفي هذا الصدد يرى اريكسون ، على أثر فرويد ، بأن كل هوية تتشكل وفقاً لعمليات تمثل ومواءمة ، وهي عملية تشتمل على عملية التوحد والذوبان ومن ثم الابتعاد والرفض . ومشكلة الهوية هي في جانب منها مسألة القيمة التي يأخذها الفرد بالقياس إلى الآخرين والتي تحمل معنى ودلالة حيث يجب على الفرد أن يحاكي الآخرين وأن يقف في الوقت نفسه على مسافة منهم . وذلك من شأنه أن يطرح على الانسانية المعضلة الأساسية والتي تتمثل في البحث عن المسافة الجيدة التي يجب على الفرد أن يأخذها من موضوع محاكاته ، وذلك ما تستجليه أسطورة « القنافذ » وهي قصة فرويديه مستقاة من شبنهور .

« في احدى أيام الشتاء القاسية تعانق زوج من القنافذ طلباً للدفء ودفع البرد ، ولأن أحدهما كان يوجع الآخر بتأثير إبره وأشواكه ، فإنهما كانا ينفصلان ويتباعدان وعندها كان البرد يداهمهما من جديد ويعودان إلى حالة العناق الموجعة . وبعد محاولات عديدة استطاع القنفذان أن يجدا المسافة المثالية التي تمكنهما من الحصول على الدفء وبأقل قدر ممكن من الأذى الذي تلحقه أشواكهما بهما » .

وذلك يعني أن ادراك المسافة الجيدة تتيح للفرد أن يحتفظ بهويته ويؤكدها في آن واحد ، ومن ثم أن يشعر بالأمن في اطار مشاركته

الاجتماعية وبالاستقلال الكافي من أجل ممارسة فعالياته الخاصة .

يبدأ تشكّل الهوية كما يقول اريكسون: « منذ اللحظة التي تتوقف فيها أهمية عملية التوحد أو التقمص . فهي نتاج لعملية انعتاق اصطفائي ولعملية توحد وتقمص في مرحلة الطفولة والتي تجعل الطفل يتشرب المعلومات ويحولها إلى أشكال معينة يعتمدها المجتمع في تحديد هويته والاعتراف به كما هو كائن . ومن هنا فإن الشعور بالاستقلال يعطي الفرد امكانية التفكير واتخاذ القرار واجراء المبادرات الشخصية .

إن تأكيد الذات يساعد في قياس مدى نضج الهوية عند الفرد . وان الفعل المستقل الخاص بالهوية المتكاملة هو فعل تمرد ضد المثيرات الخاصة بالتبعية . لقد علمتنا ديناميكية الجماعة بأن الجماعة بوصفها جماعة تبدأ بالوجود وذلك عندما تتمكن من تحقيق ما يسمى بالتنظيم الذاتي وعندها تكون قادرة على اتخاذ قراراتها بنفسها .

إن وجود جماعة ما مرهون بعملية هدم روابط التبعية التي تربط هذه الجماعة بالجماعات الأخرى الموجودة في المحيط الاجتماعي .

الشعور بالثقة:

:(Le sentiment de confiance)

كان آدلر (Adler) ، دون شك ، أول من أعطى الجانب النفسي للهوية عنايته الخاصة ،واستطاع أن يبين أهمية العلاقة التي تربط الرضيع بالأم وأهمية ثبات العلاقة العاطفية بين الطرفين وذلك من أجل تكوين الشعور المركزي بالثقة . ويشكل الشعور بالثقة كما يرى ادلر ، والذي يعد نتاجاً لتجربة العلاقة الطفولية المبكرة بالأم ، منطلق ما يسمى « بالشعور

الاجتماعي (Sentiment social) أو القدرة على المشاركة في الحياة الاجتماعية .

وانطلاقاً من ذلك فإن الشعور بالثقة بالنفس ، الذي يتكوّن في سياق العلاقة مع الآخر ، يشكل في الأساس منطلق الثقة بالآخر ، ويرتبط ذلك بدوره وبدرجة كبيرة مع قدرة الفرد على المشاركة ومدى شعوره بالانتماء .

ويستلهم ايريكسون ، في هذا الخصوص ، فكرة أدلر ويشير إلى تأثير اتجاهات الوالدين ومواقفهم في بناء شعور الثقة بالنفس عند الطفل ، والتي تعطي اعتبارات ايجابية لما يؤديه الطفل وما يقوم به . وذلك هو حال موقف الوسط العائلي الذي يشكل ، كما يرى ايركسون ، منطلقاً آخر لبناء الشعور بالثقة وتطويره .

وبناء على ذلك فإن بناء الهوية الذي يتم على نحو مكثف في مراحل الطفولة الأولى يمكن له أن يأخذ الشكل التالي: أنا الأمل وأنا الذي أملك وأعطي . وعلى خلاف ذلك فإن رفض الطفل وتعريضه للقهر (عقدة الخصاء عند المحللين النفسيين) يلغي امكانيات الطفل التي تساعده على تحقيق هويته وذلك تحت تأثير غياب الشعور الضروري بالثقة بالنفس .

وينسحب ذلك على الجماعات والثقافات حيث يتكون الشعور بالثقة انطلاقاً من العلاقات الايجابية مع الجماعات الأخرى التي توجد في اطار الوسط الاجتماعي . فالهوية ترتكز اذاً على مبدأ الاحساس بالثقة والذي ينطلق من الشعور بالأمن الوجودي كما يطلق عليه لينغ (Laing) . ومن هذا المنطلق يساعد الشعور بالثقة ، واقعياً ، في تأكيد

السيرورة الطبيعية للعمليات المعرفية وللتكامل بين القيم وعمليات التقيم والقدرة على اصدار الأحكام بناء على التكامل الحاصل .

وعلى أساس الشعور بالثقة يرتكز أيضاً مفهوم « الجهد المركزي » (Effort central) للشعور بالوجود وذلك يعني فيما يعنيه امكانية اعطاء معنى للأفعال التي يؤديها الفرد .

لقد بين علماء النفس « هيزنارد (Hesnard) وليمي (Lemay) كيف يلجأ الفرد ، في حالات مختلفة لا يستطيع فيها اجراء عمليات التقيم بشكل طبيعي ، وذلك من أجل دفع القلق وابعاده أو التخلص منه ، إلى فعاليات الكبت والاسقاط والتسامي والإلغاء . وهي الأشكال الأربعة لأواليات الدفاع عن « الأنا » التي تشكل محوراً أساسياً من محاور النظرية الفرويديه . والتي تتجلى أيضاً في آراء آنا فرويد (A . Freud) .

الشعور بالوجود والجهد المركزي:

:(Sentiment d'existance et l'effort central)

إن الشعور بالوجود شعور مشروط كما هو حال المشاعر الأخرى والتي تشكل في مجموعها نظاماً متكاملاً من المشاعر .

لكي يكون الفرد طبيعياً ، كما يقول البورت (Allport) ، يجب أن يرسم لنفسه هدفاً محدداً وأن يحدد نسق طموحاته المستقبلية وأمانيه . وليس ضرورياً أن تأخذ الأهداف المرسومة صيغة محددة ، بل يكفي أن تنطلق من شعور بالجهد المركزي (أن يصبح الفرد كبيراً وأن يسلك كالراشدين بالنسبة للطفل ، وأن يحقق المرء هذا الهدف أو ذاك بالنسبة

للراشدين) . فالتوجه العام هو الذي يعزز مسيرة الكائن في اطار جهوده الحياتية .

فالضغط النفسي يؤدي وتحت تأثير الصدمات الانفعالية إلى الانهيار عند الفرد « إذ لا يعرف بعد ذلك أين هو » ويأخذ بعض الوقت ليجد معنى لحياته .

فالهويات ـــ الفردية منها والجماعية ـــ تستهلك طاقاتها في عملية التواصل مع محور من القيم الذي يحدد لها الغاية من وجودها.

فالعقيدة (الأيديولوجية أو الدينية) تسلط الضوء على معنى الحياة. فالمناضل، كما هو حال عند افراد جماعات التعصب، يشعر بالنشوة عندما يطبق عقيدته ويمارسها، ومن غير أن نذهب بعيداً في دائرة التطرف، تعطي القدرة على تحقيق الرغبات والقيم التي توجه حياة الفرد، الإنسان مشاعر الشعور بالرضا والسعادة.

فالشعور المتفائل بالهوية، كما يقول اريكسون، يعاش ببساطة كسعادة نفسية اجتماعية. ويترافق ذلك غالباً مع احساس المرء بوجوده، في منزله وفي داخل جماعته، والشعور بأنه يعرف أين هو المآل والأمن الداخلي الذي يحظى باعتراف هؤلاء الذين يحسب حسابهم.

ويتطلب الجهد المركزي رؤية للمستقبل، كما يتطلب امكانيات التعبير عن الأهداف الحيوية وتحقيقها، هذا ويميز اريكسون بين الجهد (اللاشعوري) الذي يقارب بين الفرد ونماذجه المثالية والشعور بالهوية الذي يعني بالنسبة له وعياً بالهوية، فالهوية إذن كما تبدو له هي الإحساس

بالجهد المركزي الذي يسعى إلى تحقيق هذا الهدف أو ذاك.

ويمكن للجهد المركزي أن يتجلى في صيغة مشروع محدد للهوية. وهو نوع من الغائية اللاواعية التي تسعى للتحقق والتي توجه قرارات الفرد وسلوكه.

وبينما يسعى السوسيولوجيون إلى تحديد المعايير الخاصة المعدة لتنفيذ ذلك المشروع الخاص بالهوية (الأصل الاجتماعي، نمط الدراسة، الشهادات العلمية الحاصلة). يعمل علماء النفس على تحديد الطريقة التي تسهم فيها العوامل النفسية في تحديد هذا المشروع الخاص بالهوية (السنوات الأولى للعمر، الخبرات المتنوعة الخ...).

الفصل الثاني

الهويات المتباينة

I ـــ وجهات نظر حول الهوية:

تكمن هوية فرد أو جماعة أو ثقافة في رسم الإجابة عن السؤال التالي: من ذلك الفرد، أو هذه الجماعة أو هذه الثقافة؟ ويمكن للانسان المعني نفسه بالسؤال أن يجيب إذ يمكن للانسان أن يحدد لنفسه صورة هويته وذلك هو نمط الهوية المعلنة ذاتياً، كما يمكن للإجابة أن تعلن بوساطة أحد الشركاء وتلك هي الهوية المعلنة بوساطة الآخر.

لننظر الآن في اجابة الشخص المعني حول هويتـه: يمكن له أن يعتقد في نفسه بما هو عليه (هوية ذاتية)، ويمكن له أن يشعر بما هو عليه (احساس بالهوية)، ويمكن له أن يعلن عن هويته (هوية مؤكدة)، ويمكنه أن يُعرّف الآخرين بهويته (هوية آنية)، كما يمكن له أن يُعرّف الآخرين ببعض جوانب شخصيتـه فحسب (وهويـة مظهرية)، وأخيراً يمكن له أن يُعرّف ويقدم نفسه كلياً أو جزئياً في صورة ما لا يرغب في أن يكونه (هوية سلبية معلنة). وفي اطار هذه العناصر كلها نجد، كما هو الحال بالنسبة لمعرفة

الذات، اشكالية تتعلق بالوعي الشخصي لسمات الهوية.

لننظر الآن في الاجابة المحتملة عن السؤال السابق والتي يقدمها أحد المقربين من الشخص المعني بالتعريف: إذ يمكن له أن يعلن بما يعتقده عن هوية الشخص المعني (هوية مستنتجة)، ويستطيع أن يعلن عن خصوصية ما يعنيه الشخص بالنسبة له واقعياً (هوية ادراكية)، ويمكن أن يعلن في إجابته عن الهوية التي يرغب في أن يكون عليها صديقه (هوية معينة) ويمكن له أن يحدد صديقه انطلاقاً من بعض السمات التي يعطيها له (هوية اضفائية)، وأخيراً فإنه يمكن أن يقدمه في صورة هويته القانونية والتي تتمثل في جملة السمات المحدِّدة وذلك بالنسبة إلى منظومة القوانين القائمة في المجتمع.

فالهوية كما تبدو من الخارج هي تعريف لكائن ما (فرد، جماعة أو مجتمع)، ويستند ذلك التحديد إلى مجموعة من المعايير المحددة. وإنه لمن الصعوبة كما بيّنا سابقاً الإعلان عن جميع المعايير المحددة للهوية. وبالتالي فإن اختيار مجموعة من العناصر لتحديد هوية ما يؤدي إلى تعدد كبير في الهويات: ترتكز الهوية المادية على مجموعة من الاسنادات الموضوعية: تاريخية، مادية أو عوامل أخرى، وهي عناصر معروفة ممكنة التحديد. وعلى خلاف ذلك تنطلق الهوية الثقافية من خيارات ذات نمط ثقافي. وتنطلق الهوية الجمعية من خيارات تتصل بالجماعة لتشكل منطلق تحديد الهوية الاجتماعية وتعريفها. وذلك هو حال الهوية المهنية التي تتحدد عبر خيارات تتصل بالحياة المهنية أو النشاطات المهنية للفرد أو الجماعة.

وعندما نجيب نحن عن السؤال المطروح حول هوية الشخص

المعني، ستكون اجابتنا مرهونة بالموقع الذي نحتله والوضعية التي نوجد فيها، ووفقاً للامكانات المعلوماتية المتوافرة والخاصة بالشخص المراد تعريفه. وهكذا فإننا نعرّف هوية كائن ما وفقاً لما يمكن للشخص أن يعلنه عن نفسه (هوية معترف بها، أو مدركة جزئياً).

فالهوية، في معناها العام، كلّ يتكون من الهويات الجزئية المعلنة عن شخص ما. وذلك يشير إلى تعدد كبير في الهويات الفرعية إذ يحق لكل فرد تحديد هويته بما يناسبه وذلك ينسحب على الجماعة أيضاً. وبالتالي يجب ادراج هذا التعريف في اطار الاعلانات التي يبديها الشخص عن ذاته ليحدد نفسه بنفسه. وانطلاقاً من هذه الخصوصية يمكن القول بأن الهوية تستعصي على التحديد.

ولكن يمكن تعريف هوية كل شخص وفقاً لهويته الذاتية أي وفقاً للصورة التي يملكها عن نفسه. فالهوية الذاتية هي وعي للفرد أو للجماعة بالصور المختلفة للهوية. وهي الوعي بامكانيات المشاركة ومعرفة الانتماءات الثقافية والجماعية، وهي أخيراً الوعي بالهوية الاجتماعية، أي فيما يرغب أن يكونه (هوية مثالية) وهي ادراك من الفرد لسماته الفردية التي تكوّن هويته الخاصة وتشكلها.

II– الهوية المشتركة

L'identité communautaire

يجب علينا أن ننطلق من الحدوس القديمة لمختلف علماء الاجتماع والتي تتقاطع مع معطيات علم النفس الوراثي ومع معطيات ديناميات الجماعة وذلك لدراسة وتقصي مسألة الهوية المشتركة كعنصر أولي لمختلف الأسس الخاصة بالهوية الثقافية أو الجماعية أو الفردية.

يرى دوركهايم (Durkheim) أنه يوجد في داخلنا كائنان احدهما اجتماعي والآخر فردي، إذ يجسد الكائن الاجتماعي: «أنظمة من الأفكار والمشاعر والعادات التي تعبر ليس عن شخصيتنا الفردية بل عن الجماعة أو الجماعات التي ننتمي إليها، وتأخذ الأنظمة صيغة العقائد الدينية والمعتقدات الأخلاقية والتقاليد القومية أو المهنية والآراء الجمعية». ونحن نعتقد بأن ذلك الكائن الاجتماعي يشكل عنصراً بنائياً لنواة الهوية الثقافية والجماعية. ويميز دوركهايم أيضاً بين الكائن الاجتماعي والكائن الفردي حيث يعرف الكائن الفردي بوصفه صيغة تشتمل على خصوصياتنا الفردية مثل: سماتنا وطبائعنا، ووراثتنا، وذكرياتنا، والتجارب التي توجد في سياق تاريخنا الشخصي .

يجب علينا في هذا السياق، أن نذهب إلى أبعد مما ذهب إليه دوركهايم وذلك لتحديد جانب آخر من نواة الهوية الجمعية والذي يتمثل في المشاركة الانفعالية مع جماعة الانتماء. ونحن هنا إذ نبحث المسألة الأساسية للهوية، فإنه يتوجب علينا ادراك العلاقة الجدلية القائمة بين الـ «أنا» والـ «نحن» أو بين الذوبان الانفعالي والاستقلال العقلي الواعي.

فالهوية المشتركة هي بالدرجة الأولى صيغة مشاركة انفعالية في اطار كل جماعة. وهي الدعامة الدائمة لأشكال الهوية وصيغها المختلفة. فهي تشكل منطلق الشعور بالهوية وخاصة مشاعر الانتماء والقيمة والثقة.

وإذا كنا نؤكد وجود هوية مشتركة فإنه لمن المناسب أن نحدد الكيفية التي تولد فيها الهوية الفردية وجودياً وتاريخياً من أحشاء الهوية المشتركة.

يتفق علماء النفس بأن الصيغة الوجودية الأولى للطفل الرضيع تكون في اطار علاقته مع الأم التي تتصف بأنه صيغة علاقة ذوبانية مع الأم التي تشكل بدورها بيئة كلية ومناخاً انفعالياً لوليدها. ولوصف هذه التجربة الأصيلة الخاصة بالعلاقة بين الرضيع وأمه يمكن القول أن الوعي الأول للطفل يتمثل في خاصة الشعور المشترك الذي يأخذ هيئة ضمير الجمع المتكلم «نحن». وذلك هو وعي تجربة تقوم بين شخصين لا يمكن الفصل بينهما أو بين الأنا والآخر الذي يأخذ شخصية الأم ويجسدها. فالحقيقة الأولى المعاشة عند الطفل هي نوع من المشاركة الأوليّة والعاطفية ونوع من التلاحم بين كائن وآخر هو بالضرورة الوسط (الأم) الذي يتيح له الشعور بالرضا والإشباع أو الحاجة والقلق والخوف.

تشير الدراسات التي أجراها سبيتز (Spitz) وآخرون من علماء النفس مثل (أوبري Aubry ولينغ Laing ولومي Lemay) أن الخلل في العلاقة العاطفية بين الطفل وامه، أو بين الطفل وبديل الأم، يؤدي إلى التأثير السلبي على شخصية الطفل في المستقبل. إذ تعود اضطرابات الشخصية في مرحلة الرشد إلى الاضطراب والخلل في العلاقة بين الشخص وأمه في مرحلة الطفولة. فعلاقة الشخص المشوشة بالآخرين تعود واقعياً إلى اللاستقرار في العلاقة الانفعالية بين الرضيع وأمه في مرحلة الطفولة. والشيء نفسه ينسحب على مسألة القلق من المستقبل، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات وبالتالي فقدان الشعور بمعنى الوجود ودلالته. ففي حالات الأمراض الخطيرة مثل انفصام الشخصية «شيزوفرانيا» يتعرض المريض لحالة من مواقف الرفض وهي شبيهة بحالة الطفل الذي يشعر بذلك تجاه أمه».

وتتطور الحالة الأوليّة من اللاتمايز، أي ذوبان الأنا مع الآخر، تصاعدياً في اتجاه وعي خاص، ونحو تمايز متطور للأنا (كيلوم Guillaume، والون Wallon، مالريو Malrieu، بياجيه Piaget).

في نهاية السنة الأولى من عمر الطفل، وتحت تأثير النمو والنضج العصبي البيولوجي، تظهر عند الطفل امكانية التمييز الأولى التي تنفلت من قيود الهوية الواحدة المشتركة التي تجمعه مع أمه. وبالتالي فإن الوعي الأولي البسيط عند الطفل يتكون حسيّاً وعاطفياً على نحو كلي (مالريو Malrieu،بياجيه Piaget). فالأنا لم تتمايز بعد عن الـ «نحن» كلياً. ولكن امكانية الانفصال تتزايد تدريجياً وذلك في الوقت الذي يصبح فيه الطفل

قادراً على التنقل. وبالتالي فإن قدرة الطفل على المشي (الشهر الثاني عشر) تنمي لديه ادراكه لجسده الخاص، وذلك عندما يصبح قادراً على تنظيم حركات جسده وتوجيهها بحريّة.

وتبدأ الأنا بالتمايز على نحو واضح بين السنة الثانية والسنة الثالثة من العمر، حيث تظهر عند الطفل القدرة على توجيه نفسه بنفسه. وفي هذه المرحلة من النمو النفسي العصبي يبدأ الطفل على المستوى اللغوي بنطق ضمير المتكلم «أنا» وتبدأ مرحلة من معارضة الوسط الذي يعيش فيه وهي مرحلة ترتبط بعمليات التفرد وتأكيد الذات (والون — Wallon) وفي اطار هذه المرحلة الحرجة يبدأ الطفل بالتكوّن، عن طريق المحاكاة واللعب، وفقاً لنماذج اجتماعية يحاكيها ويتفحصها. (ميد Mead، والون Wllon، جانيه Ganet..). لقد بينت دراسة المحاكاة عند الطفل بأنها ليست محض طاقة ناجمة عن البيئة أو عن الغريزة، ولكنها نوع من المشاركة الانفعالية (Guillaume).

لقد درست الهوية المشتركة من قبل السوسيولوجيين والانتربولوجيين والمؤرخين تحت تسميات عديدة: مثل هوية مشتركة هوية جمعية أو هوية أوليّة. وبينت هذه الدراسات وجود «أنا» اجتماعية أوليّة مشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة واحدة متماسكة. وترتكز هذه الأنا على مبدأ المشاركة الانفعالية الأساسية في اطار الجماعة، وذلك بطريقة تختلف عما هو موجود في اطار النواة العقائدية والسلوك المشترك بين أعضاء جماعة واحدة وهي تختلف أيضاً عن أطروحة الوعي الجمعي عند دوركهايم.

ينتقــل كل من شيــللر Scheler وميـد Mead إلى صـفـوف الانتربولوجيين وذلك بقولهما أن ظاهرة المشاركة الوجدانية أو التواصل الانساني تكشف عن وجود نواة انسانية واجتماعية مشتركة بين الأفراد، وأن التواصل الاجتماعي ينطوي على مشاركة مع الآخرين. ويترتب على ذلك أن الآخر يوجد في «الأنا»، وأن الأنا يتمثل الآخر ويحتويه، وأن الفرد يصبح واعياً «لأناه» بفضل الآخر. وتغدو هذه المشاركة ممكنة وفقاً لنوع الاتصال الذي يستطيع الانسان أن يحققه، وهو اتصال يختلف عن هذا الذي نلاحظه عند الأنواع أو الكائنات الأخرى، حيث لا يوجد ذلك المبدأ في اطار هذه المجتمعات. وبالتالي فإن هذه المشاركة، التي توجد داخل الاتصال الشفوي منطقياً ووجودياً، تجمع بين المواقف الاجتماعية الانسانية الأساسية التي تتجسد في التساند والتبادل.

يلاحظ في اطار المجتمعات الأوليّة أن لا وجود للأنا الفردية. فالأنا هو الأنا الاجتماعي فحسب، وهو يسهم في المشاركة الجمعية وخاصة فيما يتعلق بالخرافات والطقوس والعادات. إذ لا وجود للانسان المحدد إلا من خلال انتمائه الجمعي. وبالتالي فإن شخصيته الاجتماعية ودوره الاجتماعي يتحـددان من خـلال «طوطمــه»، واسمـه وانتماءاتـه المتعـددة. وفي هذا الخصوص يشير موس Mausse إلى أن معنى كلمة شخصية قد تطور في المجتمعات اللاتينية. كان ذلك المفهوم يشير في البداية إلى معنى قناع أو دور وفيما بعد شحن بمعنى الشخصية أو الانسان الذي يتصف بحالة ما. ومن ثم تطور مفهوم الانسان أيضاً في اتجاه مفهوم الشخص أي الكائن النفسي.

يشير المؤرخون في هذا الخصوص إلى تراجع قدرة الإنسان في مواجهة سلطان الحياة الاجتماعية وذلك في نهاية العصر الوسيط. لقد بدأت تظهر اتجاهات متمايزة في اطار الحياة الاجتماعية وبدأ التغير يضرب جذوره في جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية. لنأخذ ظاهرة التغير في أثاث المنازل حيث ظهرت أدوات جديدة مثل (الطاولات، أسرّة قابلة للطي والتي أصبحت محددة فيما بعد، ثم ظهور قطع متخصصة (الصالونات الجاهزة، الأسرّة والغرف ذات الستائر). إن الفصل المتزايد بين الحياة الفردية والجمعية يجد نفسه أيضاً في اطار تطور الآداب العامة (ابعاد الطعام والمواد الغذائية عن أعين الغرباء، احترام خصوصية الآخر (اليز — N. Elias). وبالتالي فإن الفصل الحاسم بين الفرد والجماعة يظهر في القرن السابع عشر وذلك حين تم الفصل بين الحياة العائلية (أو الخاصة) والحياة المهنية.

لقد أسهم التحديث ونمو التجارة وظهور النقد كظواهر جزئية لعملية تحول شاملة في جعل الناس ينظرون على نحو متزايد إلى الطبيعة «كعالم من الأشياء» أو «كموضوع للمعرفة». فالاستقلالية الفردية التي تحدث في اطار الهيمنة الاجتماعية المتكاملة هي تجسيد لعمليات النزوع إلى الفردية وتحقيقها.

لقد أدى التطور الحديث للنزعة الفردية إلى ازدواجية الشخصية وانشطارها إلى محورين: الهوية المشتركة (الأنا المشتركة) والهوية الفردية (الأنا الفردية).

إن تطور الكائن الفردي، وضرورات الاتصال وحقائق الحياة

الاجتماعيـة، وتاريخ تطور الجماعات والحضـارات، كل ذلك يشـير إلى وجود هوية مشتركة جمعية (أنا مشترك) سابق في الوجود للهوية الفردية أو (الأنا الفردية).

تؤكد مجموعة من ظواهر التضـامن الانسـاني على أهمية البعد المشترك الجمعي للهوية الفردية. إذ تتداخل، في اطار هذه الظواهر، الهوية الفردية مع الهوية الجمعية.

وتشـير بعض المواقف إلى ذوبان الهوية الفردية في اطار الهوية الجمعية وذلك في بعض المواقف المأسـاوية التي تمرّ بها الجماعات مثل: الحروب، الاضطهاد، والظواهر القومية...

ففي حالة الحرب، وتحت تأثير الخطر المضاعف، يتم تحشيد النزعة الفردية لصـالح الأنا الجمعيـة. فالمشـاعر والأحاسيس ترتبط بالجماعة. فالخوف هو خوف الجماعة، والتضحية هي التضحية من أجل الجماعة. وبالتالي فإن موت أحد أفراد الجماعة يملي على كل شخص إحساس الألم وكأن ما حدث مصاب شخصي، وقد يوقظ ذلك رغبة الانتقام عند جميع أفراد الجماعة. ويناضل المناضلون اليوم تحت اسم الـ «نحن الجمعية». تدل التجربة التاريخية، في هذا الخصوص أنه أثناء الاعلان عن حرب ١٩١٤ كان الجنود يتحركون في غمرة متموجة من مشاعر الفرح والسرور.. إذ كانت هناك درجة عالية من التضامن التي جمعت المتطوعين. لقد برزت مشاعر الوحدة القومية لحظة انطلاق القطارات إلى الجبهة، وظهرت من جديد خرافة الوحدة المقدسة..

كانت الجمـاعات، التي تعرضت للتعذيب والارهاب وذلك من

أجل تحقيق التجانس الايديولوجي والعرقي واكراهها على اعتناق عقائد أخرى بالقوة، تقاوم معذبيها انطلاقاً من مبدأ الشعور بالهوية المشترك، وكان أعضاء هذه الجماعات يستلهمون هذه الهوية المشتركة ويتّحدون معها ويستمدون منها قواهم الأخلاقية في نضالهم ومقاومتهم. وخير مثال على ذلك يمكن أن نجده فيما يتعلق بالجماعات اليهودية المغلقة (الغيتو) التي كانت تناضل وتستنزف طاقاتها في المقاومة في اطار التضامن الجمعي الذي يقتضيه تنظيمها الاجتماعي وعقيدتها المشتركة. إن اتصال كل فرد منهم بالنصوص المقدسة جعلهم يعتقدون بأن الخلاص الاسرائيلي هو حقيقة مؤكدة وقريبة. وفي بعض الأحيان كانت هناك بعض نفحات الأمل المسيحيّة تتوغل داخل الغيتو: كان الأغنياء والفقراء يجتمعون جميعاً من أجل رحلة جماعية إلى اسرائيل. وهنا نجد بأن الخرافة كعامل من عوامل التضامن تسهم في نشاط الخيال الجمعي وتشكل جزءاً أساسياً من الهوية الجمعية.

عندما تتعرض جماعة لظلم جماعة أخرى أكثر قوة منها فإنها تستنفر هويتها الجمعية المهددة. ومن هذا المنطلق فإن بعض أشكال النزعات القومية لا تعدو أن تكون أكثر من تظاهرات عدوانية خاصة بالهوية الجمعية. وفي هذا الصدد يبين تحليل سريع لمحتوى مجموعة من المجلات الاستقلالية التي ظهرت في فرنسا (في البروتون Breton— والكورس Corse، والاكسيتان Occitan) أن الموضوعات الخاصة بالهوية كانت تغطي جوانب هذه الدوريات وخاصة فيما يتعلق بالهوية الجمعية المشتركة. فهناك دائماً عناوين على الشكل التالي: ذكرى تاريخية في

المنطقة، أبطال، مفاخر حربية، قراءات جديدة، شخصيات رائعة وممثلة للجماعة، ونقابات متماسكة. وتعكس هذه الصحف والمجلات عدداً كبيراً من التحقيقات حول بعض الأماكن والقرى الخاصة بالمنطقة، وحول بعض العادات التي تعتمد منذ عهد القدماء. وهناك معلومات ذات طابع بيئي حول حيوانات عاشت في المنطقة أو حول نباتات البلد أو الهندسة المعمارية أو حول سكان البلد. وهناك كثير من المقالات حول الاحتجاجات والتشهير الخاص ببعض الأحداث التي ألحقت المهانة بالجماعة والتي صدرت عن مجلات محلية في مقالات افتتاحية، ويلاحظ بالإضافة إلى ذلك فيض من الأشعار المحلية أو الأغنيات أو المقابلات باللغة المحلية التي تعزز قيم الجماعة، وفيض من أخبار الجماعات الفرعية ونشاطاتها الخاصة بالتعبير عن الهوية الجمعية في اطار احتجاجاتها أو نضالها.

وتظهر الاندفاعات الفورية للهوية بوضوح، على سبيل المثال، أثناء الحروب وحملات الاضطهاد وفي سياق النزعات القومية. وفي هذا الخصوص نجد بأن الهوية الجمعية تغلف الفرد وقتياً وبالتالي فإن الفرد يتمثل هذه الهوية ويعيش من أجل الجماعة ويستعد للتضحية في سبيلها. ومثل هذه الظواهر الخاصة بالتقمص تكشف لنا عن قوة الشعور بالانتماء وفعالياته.

III– الهوية الفردية والهوية الاجتماعية

(Lidentité individuel et l’identité sociale)

تطور الأنا والهوية الاجتماعية:

يعتقد اريكسون (Erikson) أن فرويد قد أهمل في إطار نظريته حول الأنا أهمية العوامل الاجتماعية. لأنه إذا كان للهوية وجه سيكولوجي داخلي فإنه لمن المؤكد بأن هناك وجه آخر هو اجتماعي خارجي بالضرورة.

وإذا كانت جميع أنماط السلوك، في واقع الأمر، تعبيراً عن اندفاعات ورغبات داخلية، فإنها كما يرى اريكسون تنطلق بالتوازي وبالضرورة من سياق اجتماعي تأخذ فيه دلالة ومعنى وتمنح فاعلها، في الوقت نفسه وعلى نحو فوري، مكاناً اجتماعياً. ويمثل ذلك المركز الاجتماعي، الذي يتحدد وفقاً لتقييم الآخر، وضعية محددة بالنسبة إلى مجموعة أنماط السلوك الخاصة بجماعة الانتماء.

«فالطفل الذي يبدأ خطواته الأولى، على سبيل المثال، لا يفعل

ذلك أن يندفع إلى تكرارها وتحسين أدائه في المشي تحت تأثير النزعة الداخلية فحسب، بل يدرك المركز الجديد والقيمة الاجتماعية الجديدة الخاصة بقدرة كائن ما على المشي، وذلك مهما يكن المفهوم الذي يمكن أن يترتب على ذلك في اطار الحياة الخاصة أو في إطار الثقافة. ومهما يكن الأمر فإن القدرة على المشي تعني بالنسبة إليه إنساناً قادراً على المضي بعيداً...».

إن كل ما يستشعره الأنا يرتبط بنماذج متعددة، فعندما يشعر الأنا بالجوع يكون هناك ألم جسدي، ولكن ذلك يشير في سياقه الاجتماعي إلى الإحساس بالتخلي والمفارقة، ويتبدى ذلك الإحساس في صيغة العلاقة بين الأم ورضيعها أي عندما يجوع الطفل. وهنا تتبدى دلالة الجوع على المستوى الاجتماعي وتتجلى في احساس الحاجة إلى الإحساس بالأمن والذي يمثل الوجه الأمومي للألم الجسدي الناجم عن الجوع.

للنظر واقعياً، على سبيل المثال، إلى المرحلة الأولى من تشكل الإنسان. إذ يمكن الملاحظة بأن الثقة والحذر يشكلان عاملان أساسيان من عوامل نمو الفرد وأنه يجب على الفرد أن يتعلمهما. ويتم اكتساب هذين الإحساسين في اطار تجربة تتصف بطابع الشمولية والعمق. فهناك أحاسيس خاصة بـ «الأنا» مثل الطمأنينة وأحاسيس خاصة بـ «الأنا» الاجتماعية مثل قيمة الآخر. وتكون مثل هذه الأحاسيس المتنوعة أو المتجانسة هي المسؤولة عن خلق إحساس الثقة أو عدمه: فإحساس الثقة الأساسي عبارة عن قناعة داخلية بردود الأفعال الإيجابية التي يمكن أن تصدرعن الآخر، أما إحساس الريبة والشك فيتمثل بقناعة مفادها أن

الآخر يمكن له أن يؤدي أفعالاً سلبية.

إنه لمن المؤكد، وفي كافة مستويات الحياة، أن كلاً من الهويتين، الفردية والاجتماعية، ينمو في إطار وحدة متكاملة وتساوق منظم. ويمكن لنا في هذا السياق أن نأخذ بعين الاعتبار، مع إجراء بعض التغيرات، مخطط الحياة الذي رسمه ايريكسون Erikson، والذي يمكننا من ملاحظة العلاقة الدائرية المتبادلة بين الأحاسيس الداخلية والعلاقات القائمة مع الوسط الخارجي.

وهنا يلاحظ أن كل نمط من التجربة الحياتية المعاشة في إطار العلاقة مع الوسط يحدد هوية اجتماعية تجسد دوراً اجتماعياً عاماً: «الذي يعرف كيف يكون كريماً، هذا الذي لا يعرف كيف يرفض، هذا الذي ينجح دائماً الخ..» ومن هنا يمكن القول أن الهوية الاجتماعية تستند إلى هذه التحديدات الأولية للأنا الاجتماعية وهي كما سنرى لاحقاً تأخذ أبعادها في إطار المساهمات والفعاليات الاجتماعية.

الهوية الاجتماعية:

(L'identité sociale)

تشير الهوية الاجتماعية إلى مجموعة المعايير التي تسمح بتعريف فرد ما أو جماعة ما على نحو اجتماعي. وهي بالتالي المعايير التي تسمح للفرد باستحواذ وضعيته الخاصة في إطار مجتمعه. وبعبارة أخرى تعني الهوية الاجتماعية السمات والخصائص التي تضفى على الفرد من قبل عدد كبير من الأفراد الآخرين والجماعات الأخرى في المجتمع (ويمثل ذلك احدى

مؤشرات تماسك الهوية الثقافية). وهي هوية اجتماعية معروفة من قبل ممثلها الذي يوافق ويشارك في الحياة الاجتماعية عبر انتماءاته الاجتماعية المتنوعة.

مخطط العلاقة بين الوسط الاجتماعي والوسط النفسي في تكوّن الهوية الفردية

مراحل الحياة الفردية	الوسط الاجتماعي	احساس الهوية	النموذج العلائقي
السنة الأولى	الأم	ثقة بالآخر أو ريبة	فضول، حب أو رفض.
الطفولة الأولى	الاقرباء الاكراهات	مشاركة (فرح، خجل، شك)	رفض أو قبول
عمر اللعب	الأسرة الأساسية	الوجود (فرح، أداء عمل، الشعور بالذنب لأداء عمل	محاكاة، لعب، كبت
عمر المدرسة	زملاء المدرسة	ثقة بالنفس (ثقة بالنفس أو احساس بالدونية)	النجاح أو الفشل
المراهقة	جماعة الأقران نماذج اجتماعية	تقدير الذات أو تبخيس الذات	المشاركة الايجابية أو العزلة
الشباب	أصدقاء من الجنس الآخر	مشاركة (اهتمام بالآخر أو نرجسية)	فشل ونجاح وجود وتضامن
سن الرشد	العمل، الزواج، تربية الأطفال	الاستقلال (تحقيق الذات أو الاغتراب)	العناية بالآخر أو إهماله
سن النضج	الأتباع العائلة	الثقة (الرصانة، اليأس)	المساعدة الاستثار العطاء الاحاطة

مخطط العلاقة بين الوسط الاجتماعي والوسط النفسي في تكوّن الهوية الجماعية

مراحل حياة الجماعة	الموضوعات الأساسية للوسط	معايير الهوية الاجتماعية	مشاعر الهوية الظاهرة
مرحلة النشوء والتكون	موضوعات محددة: جماعات، أصدقاء، أعداء	موضوعات يعترف فيها أعضاء الجماعة، جماعات أصدقاء أعداء، نماذج مترابطة	مشاعر الاحساس بالوجود العادي، احساس بالتباين
بناء التماسك الداخلي	ردود فعل الوسط: موافقة، مساعدة، رفض، صعوبات	تحديد دقيق للنتائج، أبعاد بعض الفئات الاجتماعية الموجودة	احساس الانتماء، احساس الثقة، احساس الوحدة
تنظيم داخلي	أهداف ثانوية، نشاطات، الشركاء	نجاحات، اخفاقات كمونية، الأفعال ذات القيمة	احساس بالثقة احساس بالقيمة
استقلال نشاط متقدم نحو تحقيق الأهداف	الأهداف والأصدقاء	مكان الجماعة في المجتمع المحيط بالنسبة لأهدافها نجاحاتها، اخفاقاتها، تحقيق شبكة من العلاقات	احساس بالاستمرارية الزمنية، احساس بالاستقلال، احساس بالوجود
تجاوز بعض الاختبارات	اختبارات، ردود أفعال الأصدقاء والزملاء	سلوكات الجماعة نجاحاتها واخفاقاتها	جميع الأحاسيس المكونة لإحساس الهوية (الثقة، القيمة، الاستقلال). الوجود المشاركة

فالاسم والحضور النموذجي المرافقان للفرد في إطار مجتمع ما يجمع بين أغلب السمات الخاصة بهويته الاجتماعية الاتفاقية.

يطرح سارتر في إطار رؤيته الشمولية مسألة الهوية الاجتماعية وذلك في سياق وضع الفرد في إطار المجال الإنساني (الذي يشمل جميع الناس): يقول سارتر «انني أوروبي بالقياس إلى الآسيويين أو بالنسبة إلى السود، وعجوز بالنسبة إلى الشباب، وقاض بالنسبة للجانحين، وبورجوازي بالنسبة إلى العمال..».

فالهوية الاجتماعية، واقعياً، هي جملة العلاقات الاجتماعية المتضمنة أو المستبعدة وذلك بالقياس إلى الجماعات الأخرى المكونة للمجتمع (أو المجتمع بوصفه جماعة في لحظة ما، أي جماعة كبيرة جداً على مستوى الأمة أو الحضارة).

يكون عدد الجماعات الفرعية، في المجتمعات الأولية، محدوداً: الرجال، النساء، خبراء وغير خبراء، قبائل، جماعات قرابة،... ولكن عدد جماعات الانتماء يتضاعف في إطار مجتمع صناعي بلا حدود: جماعات مهنية، جماعات اقليمية، جماعات ايديولوجية، جماعات، نشاطات... وهذه الأخيرة تتعدد بتعدد مستوى توزع المجتمع إلى جماعات مجردة: المستوى التعليمي (حملة البكالوريا)، البرجوازيون، جماعات العقد الرابع من العمر... وبالتالي فإن هذا التوزيع المجرد يجعل من الهوية الاجتماعية مجرد تجريدات اجتماعية يستطيع فقط المختصون إدراكها في إطار تكاملها.

يؤدي مفهوم الهوية الاجتماعية إلى انشطار في المفهوم الحالي للمركز الاجتماعي. لأن تسمية المركز الاجتماعي (Statut Social) تطلق

على الوضعية التي يأخذها الفرد في إطار الجماعة أو للوضعية التي تحتلها جماعة غي اطار مجتمع. وتتحدد هذه الوضعية وفقاً لنسق من المعايير الخاصة بالمجتمع: كفاءات، جنس، عمر، وظيفة،... وذلك على سبيل المثال. ويشتمل المركز الاجتماعي وفقاً لذلك على مجموعة من الأشخاص يتميزون ببعض السمات الاجتماعية المشتركة والمعروفة.

تصنف الهوية الاجتماعية الأفراد والجماعات، في المجتمعات المجزأة إلى طبقات اجتماعية وفئات ومراكز اجتماعية، في إطار الهرمية الاجتماعية الطبقية القائمة. حيث يتحدد كل مركز اجتماعي، يرتبط بهوية اجتماعية، في نسق من الواجبات، والحقوق، والحصاد، ومحددات السلوك.

ويتمكن الفرد عبر عمليات التقمص الاجتماعي، ومن غير مجازفات وأخطاء، من تمثل هويته الاجتماعية وذلك من خلال توحده مع شخص عضو آخر في الجماعة، ويعبر ذلك عن وظيفة النظام الثقافي المستدخل في وعي جميع أعضاء الجماعة.

وينطوي النظام الثقافي المستبطن على شبكة من آليات ادراكية لفك الشيفرة التي تأخذ صيغة اجتماعية، كما يشتمل على معايير سلوكية، وصيغ ادراكية معقدة. وانطلاقاً من هذه الشبكة الخاصة بالرموز الاجتماعية تتبدى الفئوية الاجتماعية (تصنيف الأفراد في فئات اجتماعية). إذ تتضمن عملية إدراكالآخر، ما يجعلنا نصنفه في إحدى الفئات الاجتماعية الثقافية ذات الدلالة، أي إدراك مركزه ودوره الاجتماعيين. وتجري الأمور وكأنه يوجد لدى كل فرد في المجتمع سجل بالهويات الاجتماعية المحددة على أساس عدد من المؤشرات الخاصة بالهوية. وهذه

المؤشرات متعددة وهي تؤدي نشاطها في صيغة جشتطالية كليّة (كما لاحظنا سابقاً). وتترابط هذه المؤشرات فيما بينها لتحديد الهيئة العامة للهوية: مثل الهيئة العامة (هيئة الرأس، القامة العامة، المزاج الظاهر..)، وطرق السلوك (مثل الاشارات، الخطوات، الصوت، الثقة بالنفس..)، ولتحديد المؤشرات الخاصة باللباس أو بالممتلكات الأخرى مثل (السيارة، المكتب) (ماككلاي Mcclay وكنيب Knipe).

يروي لنا باكارد (V. Pachard)، في هذا الشأن، قصة مسليّة لامرأة ارستقراطية خرجت للنزهة في الريف في زي متواضع، وتوقفت في طريقها أمام محل تجاري يتميز بالفخامة ــ وهو محل طالما كانت ترغب بزيارته ولم يكن لديها ما يكفي من الوقت ــ ودخلت إليه، وهناك استقبلتها البائعة ببعض البرود وعرضت عليها فستاناً متواضعاً بخس القيمة، فأشعرها ذلك بالمهانة وخرجت غاضبة. وفي الغد أتت السيدة نفسها وهي ترتدي ملابسها العادية الفاخرة وعندما دخلت المحل استقبلت باحترام كبير من قبل بائعة الأمس والتي لم تتعرف عليها بالطبع.

ويمكن لنا هنا أيضاً أن نذكر بعض المؤشرات الخارجية والمرجعية للهوية مثل: المهنة وتتضمن (التسمية، الدور، طبيعة العمل، مستوى التربية..)، والشهادات الدراسية الحاصلة (نوع الدبلوم، عدد سنوات الدراسة الضرورية..)، الملكيات المختلفة (إرث، ملكية صناعية، أو تجارية أو زراعية، نوع المسكن الأساسي والثانوي، أشياء تكنولوجية ــ سيارة ــ حاسوب ــ حيوانات مختلفة)، نمط الحياة (النشاطات أثناء وقت الفراغ، النشاطات الثقافية والرحلات..) وتلك هي مؤشرات الهوية الاجتماعية

التي تحدد هوية الفرد.

ويمكن لنا من جهة أخرى أن ننظر إلى الحياة بوصفها بحثاً دائماً عن الهوية الاجتماعية. إذ يبدأ الإنسان طفلاً صغيراً وينتهي إلى مخترع كبير. إن عملية البحث الدائم عن زيادة تقدير الآخرين وعن تقدير الذات تشكل محرضات سلوكية هامة بالنسبة للحياة النفسية والاجتماعية. وعندما تكون الهوية الاجتماعية مكبوتة أو غير مرضية يحاول الأفراد ترك جماعات الانتماء (وهم يفعلون ذلك في إطار استراتيجية غير شعورية).

إن إعادة التموضع الاجتماعي يترافق مع صورة جديدة للمؤشرات الاجتماعية الخاصة بالوضعية الجديدة مكان السكن، السيارة، الملابس نمط الحياة المعلن (كوفمان **Goffman**).

ويميل الأفراد في إطار علاقاتهم مع الآخرين إلى تعريف أنفسهم بهويتهم الاجتماعية وذلك على نحو عفوي، ويعني ذلك بوساطة الفئات الاجتماعية التي ينتمون إليها.

عندما طلب من بعض الأفراد الإجابة عشرين مرة متتالية وبطريقة مختلفة عن السؤال التالي: «من أنا ؟». كانت الإجابات التي تمّ الحصول عليها تشير أولاً إلى الفئات الاجتماعية: العمر، الجنس، العرق، الجنسية، المهنة. وإلى الأدوار الاجتماعية (آباء — أخوة). وإلى الانتماءات السياسية.. وهذه الفئات الاجتماعية كما يرى بعض الباحثين تحدد الهوية الاجتماعية. وتشير الاجابات المدونة في المستوى الثاني إلى معايير أخرى: انتماءات مجردة مثل (كبير، جميل..)، وإلى معايير وجودية أو معتقدات ايديولوجية، ثم إلى عناصر تتعلق بالاهتمامات العقلية والنفسية والفنية ثم

إشـــارات إلى النشـــاطات. إن تحديد الأنا يشتمـل على ذكر السمات الشخصية التي تتضمن القيم الأخلاقية، وخاصة الاستقلال وإدراك وحدة الأنا والكفاءة الفردية. ويرى بعض الباحثين في جملة هذه المعايير الأخيرة المحور الشخصي للهوية الاجتماعية.

وتشير الملاحظات الأخيرة إلى وجود رؤية ذاتية شخصية للهوية الاجتماعية. ولايضـاح الأمور بدرجة أكبر يفضل أن ننظر إلى الجانب الاتفـاقي في تعريف الهوية الاجتماعيـة والذي يركز على أهميـة جماعات الانتماء. وهو جـانب تحدده الجمـاعـات وثيقـة الصـلة بمحيط الحيـاة الاجتماعي للفرد المعني. ويمكن لتماسك مجتمع ما أن يقـاس بأهميـة الاتفاق الذي يعلنه جميع الأعضاء حول نسق الهويات الاجتماعية المحددة.

IV ـ هويات أخرى

Autres Identités

الهوية المظهرية الشكلية:

Identité de façade

الهوية المظهرية هوية يقترحها الفرد أو الجماعة من أجل الآخرين. وهي صورة للهوية تعد بطريقة أكثر أو أقل تطابقاً مع الهوية الحقيقية.

وتعد هذه الهوية هوية اجتماعية أي أنها معدّة من أجل الأعضاء المشاركين في اطار الحياة الاجتماعية. ووفقاً لهذه الصيغة يمكن امتلاك عدة أنواع من الهويات المظهرية: صورة منها تعد لجماعات الانتماء. وعندما تعرض هذه الهوية على الآخرين فإنها (كما هو حال أية هوية) تقتضي نوعاً من السلوك الذي يناسب صورتها. وعندما تكون صورة الهوية المظهرية قائمة على تضمنات الاحترام عموماً فإنها تتطلب سلوكاً يقوم على أساس الاحترام والتقدير والذي يجعل صورة هذه الهوية في مأمن من المفاجآت الممكنة. وفي هذا الخصوص يقول كوفمان Goffman، إن أنماط التفاعل وطقوسه المطلوبة تبعد الخطر عن الهوية.

ويأخذ الشكل والسلوك الذي تعرض فيه الهوية على الآخرين أهمية

خاصة في تعريف الهوية الاجتماعية المظهرية. ويلاحظ في هذا السياق أن أغلب الثقافات تتضمن بعض الأدوار والمراكز التي تقتضي هويات مظهرية تحقق التوافق بين الشكل ونمط العلاقات الاجتماعية.

ويمكن للفرد أن يفقد هويته الخاصة تحت تأثير المعايير الخاصة بالدور والبروتوكولات التي تسيطر كلياً على سلوك الفرد أو الجماعة. إن حالات التعريف الاجتماعي أو أحكام الآخر تدفع الفرد إلى اتخاذ هويات مظهرية. وتتضمن هذه الحالات مخاطر احكام سلبية من قبل الآخر. وذلك يعني أن اتخاذ هوية مظهرية يشير إلى ردود فعل دفاعية ويجنب الشخص بالتالي مخاطر التقييم السلبي. كما يوفر الدور الاجتماعي، المحدد بأنماط سلوكية ولياقات اجتماعية معينة، للفرد أو للجماعة الحماية من الانتقادات الممكنة.

إن السمات التي تحدد الهوية المظهرية هي في أغلب الأحيان سمات عادية متوافقة ونموذجية. وتكمن مهمة الهوية المظهرية واقعياً، في اخفاء الصورة الحقيقية أو الحد من النظرة النقدية للآخرين. ومن أجل ذلك لا يوجد ما هو أفضل من التوافق المبتذل مع المعايير الثقافية الجارية.

« يمكن أن نذكر في هذا الصدد ردود الفعل الهيبيَّة في أعوام الستينات التي استهدفت القيم الثقافية للعالم الراشد. ومن ثم حركات «البيبيس» « Babas » والبينكز « Punks » ثم حركات النيووايف « Newwave » في الثمانينات. التي أبدت عروض التهكم والسخرية من عالم الراشدين وذلك حين يقلد « النيوويف » بعض الجماعات الاجتماعية بشكل دقيق. تضع جماعات « النيووايف » مخططات سلوكية محددة من

أجل تصنع موقف فئة اجتماعية أو مهنية معينة. فأحد الشباب يذهب على سبيل المثال إلى تقليد موظف مكتب تقليدي في سنوات الستينات وذلك بارتداء بذلة رمادية ضيقة مهترئة، وربطة عنق ونظارات مدورة من الحديد، وقميص ذو ياقة بالية، وسترة زرقاء بحرية، وقبعة متحركة، وخطوات هادئة. وقد يلجأ إلى اعطاء صورة أخرى لرجل تكنوقراطي: بذلة سوداء داكنة مكونة من ثلاث قطع، نظارات كبيرة، ومعطف فاخر داكن اللون، ومحفظة من الجلد الأسود، ثم حذاء أسود ذو أربطة الخ. إن هذه القدرة على التقليد الواعي تشكل برهاناً على وجود مؤشرات خارجية للهوية الاجتماعية.

فالهوية المظهرية هي هوية اجتماعية في أغلب الأحيان كما سبق لنا أن بينا ذلك. ولكن يمكن لهذه الهوية أن تكون هوية مظهرية نفسية أو ثقافية: ويتمثل ذلك في صفات مثل الرقة والضيافة التي تجسد هذه الحقيقة.

الهوية التفاضلية:

Identité différentielle

غالباً ما يمكن تحديد هوية ما بالاعلان عن السمات التفاضلية الرئيسية فقط وهي السمات الرئيسية التي تسمح لنا بتعريف أحد الزملاء أو الأصدقاء. فمن أجل أن أعرف زميلاً بزميل آخر، أعلن له عن جملة من السمات المهنية الهامة لا غير والتي أعرفها وهي سمات تسمح بتحديد موقعه المهني بالقياس إلى الآخرين. (هوية تفاضلية مهنية).

ويجب على الجماعة العرقية إذا أرادت أن تعرّف نفسها وذلك

بالنسبة لجماعة عرقية أخرى تسكن في الاقليم نفسه وتعيش بالطريقة نفسها وتملك تنظيماً اجتماعياً متجانساً أن تستند إلى أساطيرها المختلفة، وتاريخها المختلف، وسلوكها المختلف.

فالهوية التفاضلية نتاج لعملية مقارنة بين الهويات المتقاربة والتي يمكن لها أن تكون ثقافية اجتماعية، جماعية، أو فردية.

يمتلك الأفراد امكانية ادراك فورية لهويتهم، ويشير ذلك إلى تكون وعي الهوية انطلاقاً من عمليات مقارنة مستمرة مع الآخرين. ففي خيار « من أنا؟ » على سبيل المثال غالباً ما كانت النساء تذكر فئة الانتماء إلى الجنس بدرجة أكبر من الرجال. وكان السود يميلون إلى ذكر انتماءاتهم الاجتماعية بدرجة أكبر من البيض، واليهود انتماءهم الديني أكثر من المسيحيين. وذلك يؤكد وجود فئة أساسية من السمات غنية بدلالاتها. وهي فئة مفضلة للتعريف وغالباً ما يركن إليها ويشدد عليها في اطار السياق العام.

لقد عرفت أمريكا ما يسمى « بالغيتو الأسود » وهي أحياء الزنوج، ومن ثم « الغيتو السبيك » « Spics » وهي أحياء تضم مهاجرين من أصول اسبانية ومكسيكية وبرتغالية وسلفادورية. وتمثل اليوم هذه الأحياء فقراء أمريكا الجدد كما كان هو حال زنوج لوس انجلوس وشيكاغو. وكما هو حال الزنوج عامة يحدث لافراد هذه الأقليات اعلان التمرد نظراً لما يلقونه من امتهان كمواطنين من الدرجة الثانية. ففي احدى الفتن التي حدثت في بوسطن أصيب ٢٥ رجلاً بجراح وكان السبب في ذلك الاحتجاج على سكن السود في احد الأحياء بوصفهم مواطنين رفيعي المستوى، ولكن سكان الحي ينظرون اليهم بوصفهم أناساً غير

جديرين بالاحترام طبعاً لمواصفات عرقية (مثل سكن طبيب أسود).

الهوية الاضفائية المحددة:

Identité attribuée

الهوية الاضفائية هي تحديد للهوية يصدر من الخارج (تمايز عن الهوية الذاتية الصادرة عن الفرد ذاته). وهي جزء متكامل من الهوية الكلية (الهوية الفردية أو الجماعية). وتشتمل الهوية الاضفائية على مختلف التحديدات التي يصدرها الآخرون حول الفرد. وهي صورة اجمالية للسمات التي تسمح بتحديد الهوية خارجياً.

وتضفي كل فئة اجتماعية داخل الوسط الاجتماعي بعض السمات الخاصة بالهوية مثل: أنا رجل أو أنا امرأة. في اطار ثقافي اجتماعي: انني زعيم أو قائد أو تابع. وفي العائلة: أنا الأكبر أو الأصغر أو الأخير في العائلة وفي العمل مثل انني اختصاصي أو غير اختصاصي الخ..

أن يكون الانسان رجلاً في أمريكا الجنوبية وفي فرنسا لا يحمل دلالة واحدة. إذ يوجد خلف هذه النماذج الاجتماعية، المحددة داخل كل وسط اجتماعي، أوامر وايعازات غير صريحة تضغط على الأنا وتحدد الهوية عبر السلوك ومن خلال نماذج ذات قيمة ولكنها ممثلة في نهاية الأمر. إذ تتحدد الهوية الحقيقية في جزء منها تحت تأثير مختلف الهويات الاضفائية الصادرة عن الوسط المحيط بالحياة (إن الحياة لمدة أربعين سنة تحت هيمنة زعيم اوتوقراطي تؤدي إلى تشكيل هوية عبودية).

وتتضح أهمية تأثير متطلبات الوسط في سياق حالتين هما: التبعية

والتسلط. وفي اطار كلتا الحالتين يجد المرء نفسه ازاء مسألة التبعية أو التسلط (Memmi).

إن تحديد الهوية من قبل ذلك الذي يوجد في موقع السيطرة يكون بمثابة تعليمات وأوامر. وذلك لأن التابع وهو في وضعيته الدونية لا يستطيع الانفلات من هذا التحديد. (انظر الفصل الثالث «فقرة الاستلاب وهدم الشخصية»).

الهوية السلبية:

Identité mégative

الهوية السلبية مفهوم استخدمه اريكسون Erikson لتحديد جملة السمات التي يتعلم الفرد أن يتجنبها.

وتُتَشكل الهوية السلبية في الوقت نفسه الذي تُتَشكل فيه الهوية الايجابية. ففي اطار التمثلات الايجابية هذه التي تقوم على أساس الرفض الاصطفائي هناك عمليات كبت تدفع كل من لا يحظى بالتقدير الاجتماعي: فالهوية السلبية هي إذن صورة سلبية تضير بالهوية. بل هي نموذج مضاد لتوجيه السلوك.

وغالباً ما تحدث اضطرابات في الهوية ناجمة عن تبني نماذج سلوكية فردية في اطار الوسط الاجتماعي وذلك بوصفها نماذج هويات سلبية. يشير كل من كودنوف Goodnouqh ووتكين Witkin انه غالباً ما ينتمي الأطفال الاتكاليون إلى أسر ممتدة أو إلى أسر يكون حضور الأب فيها قليلاً. إذ تتميز هذه الأنماط العائلية بغياب النموذج الايجابي للدور الذكوري. وعلى خلاف ذلك غالباً ما ينتمي الأطفال

الاستقلاليون إلى عائلات نووية يكون فيه حضور الآباء فاعلاً وهم الآباء الذين يرفعون نظاماً تربوياً يبدو طبيعياً بالنسبة للأطفال. وتبدي الملاحظة حول الاسـرة غير المستقـرة والتي تنتمي إلى أقليات وجماعات عرقية وتسودها المشاحنات المتبادلة بين الابوين أن الأطفال يخفقون في المدرسة ويعانون من مشكلات كبيرة تتعلق بمستوى تكيفهم الاجتماعي (مثل الانحراف والبغاء).

وتشير دراسات اخرى (بودوارد Baudours) كيف تعيق الهوية الاجتماعية السلبية للأب (تحديد يعطى من قبل العائلة خصوصاً) الطفل من تمثل الأدوار الذكورية الطبيعية بالنسبة للأطفال الذكور، وكيف تعزز اتجاهات الانحراف الجنسي (« هوموسيكسول » — Homosexuel)

فالهوية تتكون طبيعياً وذلك بنفي بعض السمات المضفاة من قبل الوسط الاجتماعي «لا لست أنا» لسنا نحن ما يعتقد بنا». فالأفعال الحالية تنسخ الأفعال الماضية وتلغيها.

ويمكن لجماعة ما أن تتنكر لهويتها السلبية وذلك عن طريق اعادة كتابة تاريخها (بناء تاريخ اسطوري). وكما هو معروف تنطوي أزمة الهوية في مرحلة المراهقة على اسقاط النماذج السلوكية العادية. (مرحلة المعارضة) والبحث عن تمثلات جديدة (مرحلة القلق والمحاولة).

الفصل الثالث

أزمات الهوية ومشكلاتها

(Problémes et crises de L'identite)

يمكن تعريف الهوية، الآن، بوصفها منظومة من المعطيات المادية، والمعنوية، والاجتماعية، التي تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفية. ولكن لا يمكن لمثل هذه المنظومة أن تكون في حيز الوجود ما لم يكن هناك شيء ما يعطيها وحدتها ومعناها، ويتمثل ذلك في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصة الاحساس بالهوية والشعور بها.

فالاحساس بالهوية مركب من المشاعر المادية، ومركب من مشاعر الانتماء، والتكامل، والاحساس بالاستمرارية الزمنية، والتنوع، والقيم، والاستقلال، والثقة بالنفس، والاحساس بالوجود. ومن هنا يمكن القول بأن أزمات الهوية تولد تحت تأثير عمليات كبت تنال جانباً، أو جوانب متعددة، من مشاعر الانسان.

فالهوية ليست شيئاً جامداً، بل هي حقيقة تتطور وفقاً لمنطقها الخاص الذي يتجسد في عمليات التقمص والتمثل والاصطفاء. وهي في سياق تطورها تتحدد على نحوٍ تدريجي، وتعيد تنظيم نفسها، وتتغير من غير توقف وذلك إلى حد تكون فيه قادرة على تحديد خصوصية الكائن

الانساني. وهي تنطوي على دينامية داخلية مماثلة لمنظومة العمليات المعرفية والعقلية التي تشكل منطلقات الاحساس بالهوية. وشأنها في ذلك شأن مركب تكاملي يتجاوز مراحل نموه.

ولقد لاحظنا كيف يمكن لبعض المراحل الهامة في تكون الهوية وتطورها أن يترك بصماته التي لا تمحى أبداً مثل مرحلة الطفولة عند الانسان، أو احدى المراحل الهامة والتاريخية من مراحل تكّون الجماعة. هذا ويمكن للهوية أن تتعرض من غير أدنى شك إلى صدمات عاطفية وتتجاوزها: مثل الصدمات النفسية العاطفية الفردية، أو الجمعية، أو الثقافية.

فالهوية المتكاملة هي الهوية التي تمتلك ديناميتها الداخلية وتسعى إلى تأكيد وجودها وتحقيق ذاتها، وفقاً للكيفيات التي يسمح بها الوسط المحيط. وكما هو الحال بالنسبة لمختلف صيغ التكيّف الحيوي وأشكاله، توجد هناك حدود مرسومة وبالتالي فإن تجاوزها يعني الوقوع في دائرة الاعراض المرضية والتحديات النكوصية أو المبالغات الدفاعية أو الاعراض ذات البعد الاضطهادي. فالهوية هي في واقع الحال كيان يتطور ويمر في مراحل بنائية، وهي كيان يتكامل ويتجه نحو وضعية النضج والتكامل.

ان مفهوم الهوية الناضجة (Maturité d'identité)مفهوم قلما خضع للدراسة والبحث. ومع ذلك فإن مثل ذلك المفهوم يعد أساساً إذ يساعد على فهم تجليات العديد من أزمات الهوية واشكالياتها. وهي اشكاليات تظهر في مراحل النمو ومستوياته، والتي يمكن لها أن تتجلى كردود أفعال لهويات لم تستطع أن تعلو إلى مستوى النضج والتكامل

فالهوية الراشدة هي الهوية التي استطاعت فيها مشاعر الاحساس بـالهويـة أن تتطـور على نحو متوازن. ومثـل ذلك التطور المتوازن يعطي الحـاضر دلالتـه ومعنـاه، ويسمح لحامل الهوية بالاستفـادة من التجربة المعـاشـة، ويمكنـه من مراقبـة الذات، ويسهل عملية التكيـف والمبادرة، والاحساس بالمسؤولية والتكامل والوحدة، والقدرة على العطاء والادراك، وامكـانيـة الفعـل اللامركزي، ومعـرفـة الغـير، والقـدرة على التعبـير (P.Osterriethe).

فالقدرة على تجاوز المشكلات التي أفرزها تاريخ التطور الفردي، أو الجمـاعي، وعلى تجاوز شـروط الخبرة السـلبيـة، تشكل خاصـة الهوية المتكـاملة. وذلك يعني أن الهوية الناضجة هي الهوية القادرة على تحقيق الانسجام والتكامل مع الأنظمة المعرفية والثقافية المعطاة.

وانطلاقاً من المشاعر الأوليّة، الخاصة بالثقة والتكامل، تكون الهوية النـاضجة قادرة على تحقيق التكامل بين التجارب الجديدة، وعلى خلق تجارب جديدة دون انقطاع، والتي تشكل منطلق هوية دائمة التجدد.

لقد استطاعت الدراسات التجريبية حول ديناميات الجماعات أن تبين، بوضوح، مراحل تكون الجماعات الناضجة. إن تجمع أشخاص من الراشـدين لا يشكـل جماعة أو جماعة متكـاملة بالضرورة. إذ يوجد احساس بالقلق في بداية تشكل الجماعة، وهو احساس يسيطر على جميع أفراد الجماعة، وينشأ من احساس كل فرد بالوضعية الجديدة للجماعة. وتدريجياً يبدأ احساس المشاركة بالنمو، والذي يتمثل في احساس جمعي بالثقـة بين افراد الجمـاعة. وبنـاء على معطيات ذلك الاحسـاس بالثقة

تستطيع الجماعة أن تحدد وظيفة ودور كل فرد من أفرادها. **وهي تستطيع** أن تحدد الطاقات الموجودة في داخلها وأن تعمل على تنظيمها. وبالتالي فإن الوعي الجمعي بالمظاهر الانفعالية والعاطفية أمر ممكن، حيث يقوم ذلك الوعي بعملية تشريط الاستقلالية النهائية للجماعة. ومن هنا يمكن تحديد شروط نضج الهوية، وهي شروط مادية ونفسية وثقافية واجتماعية، تسمح في مجموعها لمشاعر الهوية أن تولد وتتكون.

سنعمل فيما يلي على دراسة بعض أسباب أزمات الهوية ولا سيما الوضعيات الأساسية للمظاهر المرضية التي يشكل موضوع تقصياتنا. حيث سنعمل على استجلاء ردود الأفعال الأساسية التي يبديها الأفراد أو هذه التي تظهر داخل الجماعات أو الثقافات عندما تتعرض هويتها للتهديد أو الخطر.

(Les Problèmes de référents identitaires)

انشطارات الهوية:

(Les dissonances identitaires)

تعد نظرية فيستنجر (Festenger) حول التصدع المعرفي من النظريات المعروفة في مجال علم النفس . حيث تشير النتائج الأساسية للتجارب حول مسألة التنافر المعرفي إلى تدخل النظام المعرفي والعقائدي وتصورات الفرد في عملية الادراك والسلوك وذلك من أجل تقليص التعارضات المنطقية الممكنة . وتتمثل العملية الأساسية الخاصة بالتنافر المعرفي في العمل على خفض درجة التوتر المحتملة أو القائمة . ومن الواضح أنه إذا كان نفي الواقع أمراً غير ممكن فإن النظام المعرفي يستجيب بطريقة اقتصادية عالية من أجل دمج عنصر التشويش المحتمل في داخل سياقه المتوازن .

ويمكن لنظريات التوازن المعرفي التي نجد تطبيقاً لها في مجال البناء

المعرفي أن تجد مكاناً لها في مجال الذهنية أو في اطار النظام الثقافي . حيث لا يمكن لعناصر متعارضة أن تستمر في الوجود داخل نظام ما من غير وجود درجة ما من التوتر . وبالتالي فإن الصراعات الداخلية تكون محتملة إلى حد ما ، وهذا من شأنه أن يجعل الهوية في حالة تعرض لصدامات تيارات متعارضة . وتوجد مثل هذه التصدعات داخل النظام الثقافي ، كما توجد داخل النظام المعرفي عند الفرد . إذ يوجد في داخل الثقافة عدد من التناقضات ، وهي تناقضات يتجاوزها الأفراد دون صعوبات كبيرة .

وتنشأ أزمات الهوية عندما يصبح التوتر الذي تثيره هذه التناقضات على أشده ، وعندما تؤدي إلى شلل في طاقة الفعل ، وإلى وجود قلق دائم . وهي تناقضات موجودة أساساً في عمق المجتمع الغربي (D. Bell, R. Aron.) . فهناك تناقض بين مبدأ المساواة المعلن وواقع التمييز الاجتماعي الذي تتطلبه الضرورات العلمية ودرجة تطور المؤسسات . كما يوجد هناك تناقض بين مبدأ المشاركة السياسية واتجاهات النزعة الفردية .

لقد أشار انتربولوجيون مثل بالانديبه (G.Balandier) وباستيد (G.Pastide) بأنه لا يمكن للمجتمع الواحد أن يكون مطلق التجانس بل ينطوي على جماعات فرعية وثقافات فرعية مختلفة تمثل احياناً نماذج متناقضة . وهناك مجموعة من المشكلات التي افرزها التصدع الثقافي وهي متشابهة في البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة على حد سواء . وهي إلى حد ما تعكس ضغط الصدمات « التطبيعية » ويمكن أن نجد العمليات وردود الأفعال الدفاعية نفسها ــ والتي تعزى إلى التنافر القائم بين

الكولنيالية والثقافة الأصلية ــ بين الثقافة المدنية والثقافة الريفية ، بين ثقافة الشباب وثقافة الراشدين ، وخاصة عمليات المقاومة ، والادراك واعادة التفسير ، والتمثل ، ومعاداة التطبيع ، وهي عمليات توجد في كافة المستويات الثقافية والمعرفية .

فالشباب لا يوجدون في الشروط عينها التي احاطت بآبائهم ، وهم لا يعيشون الحالات نفسها التي عاشها آباؤهم . فلكل جيل ادراكه الخاص للمجتمع ولنماذجه الثقافية ، أو باختصار ، لنظامه الثقافي .... بالاضافة إلى ذلك كله فإن الشباب يعيشون ذلك التباين الذي يوجد بين المعايير الاجتماعية التي يتبناها آباؤهم وبين الممارسات الحقيقية التي يؤديها هؤلاء الآباء .

إن التعارض بين الأجيال ظاهرة تبدو على نحو أكثر وضوحاً عند السكان المهاجرين . فالآباء يحافظون على قيم ومعايير مجتمعاتهم الأصلية ولكن الأطفال الذين يوجدون في مدارس المجتمع الجديد يتأثرون بعملية التنشئة التي تمارسها وسائل الاعلام المحلية وهم يتمثلون بذلك قيماً مختلفة عن قيم آبائهم ، إذ يوجد هناك مجموعة من المهن الجديدة التي تظهر في داخل الثقافة الغربية وهي توجد على حدود عدد من المجالات والمهن القديمة وهنا يوجد العاملون الاجتماعيون ، على سبيل المثال ، على حدود العمل المدرسي والصحي والقانوني . مثقلون بعدد كبير من القيم والمعايير السلوكية المتباينة جداً . وهم بالتالي يطرحون تساؤلات لا حصر لها حول ما يجب عليهم أن يقوموا به : تعزيز بعض المعايير أو رفضها ... وبعض الباحثين يتساءلون بعد كل ذلك إذا كان العاملون الاجتماعيون يملكون

هوية أم لا . ومثل هذه الشخصيات الغامضة تسعى إلى مساعدة الآخرين على الدخول في حوار لا ينقطع . إن مثل ذلك التصور الخاص بتكوين الهوية يعكس إلى حد كبير المعايير الثقافية غير المباشرة وهي معايير بعيدة جداً عن العمليات النفسية الخاصة ببناء الهوية .

فالثقافة الغربية التي تمتد وتتسع عالمياً بدأت تجعل من الكرة الأرضية قرية كبيرة (ماكلوهان Macluhan) . ولكن ذلك لا يعني بأن الجماعات الفرعية متجانسة الهوية على نحو ما يجري في قرية صغيرة . ومع ذلك فهناك ثقافة مرجعية مشتركة تشكل الإطار العام للحركة الثقافية على وجه العموم . وهي ثقافة تمارس فعالية الاستلاب على الأفراد الذين يعيشون داخلها .

ولا تستطيع بعض الثقافات الفرعية أن تستدخل بعض القيم الثقافية السائدة على نحو كلي ، وذلك دون إكراه ، أو دون نفي للذات . فهي تنطوي على نظامين من القيم المتجاذبة والمتعارضة . ولكن يمكن لذلك التعارض بين القيم أن يجد له مخرجاً وقد يكون ذلك غير ممكن أيضاً .

ويشير باستيد (Bastide) في هذا الخصوص إلى كيفية المصالحة بين النظامين عند « الأفروبر ازيليان » والذين كانوا يعيشون ازدواجية هوية ثقافية ، وذلك من خلال المشاركة في الحياة الاقتصادية والسياسية المعاصرة من جهة ، والاخلاص للحياة الدينية الافريقية التقليدية من جهة أخرى . إن هذه القدرة التي يطلق عليها باستيد مبدأ القطيعة غير مهيأة على نحو دائم .

وفي هذا الصدد يرى مالوف (Maalouf) على سبيل المثال أن العالم الاسلامي يتملكه احساس بأن القيم الحديثة قيم غريبة عنه وذلك منذ عهد الصليبيين . كما يوجد لديه الاحساس بأنه لا يمكن له أن يتبنى هذه القيم إلا بالتخلي عن هويته الذاتية .. ولكن هذه القيم الجديدة تحظى باحترامه وتشدّه : فهي تمثل في النهاية منطلق الحضارة ومنهج الوصول إلى التكنولوجيا المعاصرة . بالتالي فإن حصار نموذجين متناقضين من القيم يجعل العالم الاسلامي يعاني من التردد والحيرة . فالمسلمون يقلدون الغرب أحياناً (حال الشاه على سبيل المثال) ويرفضون قيمه ويرتمون في أحضان الماضي كوضعية تعويضية أحياناً أخرى . فالعالم الإسلامي كما يرى ذلك المؤرخ لم يستطع أن يجد الحل لإشكالية الانفصام الحضاري والثقافي . وهو بذلك يعاني من جراء ذلك حالة شقاء مخيفة ومأساوية .

اضطراب الأمن الوجودي (الانطولوجي)

Les Pérturbations de la sécurité ontologique

ينطلق التحليل العلمي لأزمات الهوية (وعلى الخصوص أزمة الهوية الثقافية الغربية) من معطيات تحليل الظواهر النفسية والاجتماعية وهي ما نسعى إلى معالجته في هذا الفصل .

الانحلال العائلي :

أشرنا منذ قليل إلى حالة العائلات التي تنطلق من نماذج تربوية مختلفة وغير محدّدة ، وهي نماذج تحدد بقرارات الراشدين.

فالحاجة إلى الأمن وإلى أسس مرجعية راسخة ، وخاصة في المراحل الأولى من عمر الطفل ، ضرورة يؤكدها جميع الباحثين في مجال علم النفس والتربية .

ويعني ذلك أن الإنحلال العائلي يؤدي إلى اضطرابات مرضية تصيب الهوية وهي اضطرابات تعود إلى ضعف العلاقات العاطفية وإلى عدم الاستقرار العاطفي . كما يعود ذلك إلى تربية لا يوجد فيها نماذج

معينة تساعد الطفل على التوحد والتقمص . وذلك من شأنه أن يؤدي إلى اضطرابات في كينونة الهوية الفردية .

وعندما يتحول الإنحلال العائلي إلى ظاهرة اجتماعية عامة ــ لأسباب إقتصادية ثقافية ــ فإن أزمة الهوية تصبح ذات طابع اجتماعي يتسم بالعمومية . أي أن ازمة الهوية تصبح ظاهرة جمعية تصيب الجماعة ككل . أي أن ذلك يدخل في إطار السياق الثقافي ، ووفقاً لذلك المعنى فإن أزمة الهوية تصبح نوعاً من ردود الفعل أو انعكاسات لمعاناةٍ ذاتانية وجودية . وهناك أشكال مختلفة من تجليات العنف (X.Roufer) التي تترجم هذه الإنعكاسات المتعلقة ، ومثال ذلك الهجوم من أجل الدفاع (الهجوم الدفاعي : الاحتجاج والإرهاب

الاستبعاد بالرفض :

لقد أكدنا على أهمية القبول العاطفي الذي يجب أن ينبع من داخل البيئة الاجتماعية الأولى وذلك من أجل بناء الهوية الفردية .

ولا بد لنا هنا من أن ننظر بعين الأهمية والاعتبار إلى التحليل السوسيولوجي ، لكل من فروم Fromm وهورني Horny ، اللذين يبيّنان أن أشكال العنف الفردي ظواهر تقوم على أسس وضعية الاستبعاد والمنافسة كمظهرين تعززهما الثقافة الغربية المعاصرة . وفي هذا السياق يلاحظ نمو كبير للفردية واسقاط واضح للأدوار التقليدية في كثير من الأسر ، كما يلاحظ تضخم في التوجه نحو اشباع محموم للرغبات الآنية ،

وذلك دون توقف . ومن شأن ذلك تعزيز اتجاهات الرفض نحو الطفل الذي ينظر إليه من قبل العائلة كعبء لا يحتمل حيث يتوجب عليه أن يعنى بنفسه .

إن التوجه نحو الحياة من غير اطفال يشكل إحدى المنطلقات الأساسية لانخفاض نسبة الولادات في الغرب . حيث يلاحظ أن الأسرة تقتصر على طفل أو طفلين بالدرجة الأولى . وذلك لأن عمل الأبوين يطرح اشكالات تربوية معقدة خاصة بالأطفال . وهنا لا بد من وضع الطفل عند مرضعة أو في دار الحضانة أو في رعاية الوالدين . ومن أجل حماية الوضعية المهنية طرحت حلول عديدة . ولقد لاحظنا سابقاً كيف تؤدي عملية اقصاء بعض الجماعات الاجتماعية إلى انعدام الاحساس بالأمن الخاص بالهوية ، والذي من شأنه أن يعزز من مظاهر النزعة العدوانية وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بهوية ذات طابع سلبي وذلك تحت تأثير الوسط الاجتماعي .

الهدم العاطفي :

كما بينا سابقاً يمكن للأذى العاطفي أن يؤدي إلى تربية مجحفة وخاصة في إطار الأسر المتسلطة . ويمكن أن نجد ذلك في إطار التربية الكيبوتنتز (Kibboutntize) . كما يمكن ملاحظة ذلك على المستوى المهني عند العمال الذين تعرضوا لعملية استلاب بتأثير ظروف عملهم الشاقة .

وفي كل لأحوال فإن ذلك الأذى يتمثل في الإحساس بانحدار القيمة الذاتية وفقدانها لمحتواها . وذلك يعني أن تحديد الآخر للهوية يكون سلبياً إلى حد كبير . فالوزن الاخلاقي الكبير لأبطال الكيبوتنتز يمنع افراد القبيلة من الزعم بأنهم قادرون على الوصول إلى درجاتهم الاخلاقية . ويزعم بعض الباحثين أن التلفزيون في المجتمعات الغربية يسهم إلى حد كبير في عملية الهدم الانفعالي عند الاطفال ، كما يسهم بذلك في إيجاد شخصيات تفتقر إلى طاقات المبادرة الشخصية والتي تستحوذ عليها مشاعر الضعف والقصور . وبالتالي فإن تأثير هذه الطاقة يؤدي إلى ذاتانية عالية عند الأطفال الذين يتعرضون لعملية كبت وانغلاق على لذات ، والذي يؤدي في النهاية إلى فقدان القدرة على الخلق والابتكار ..

انهيار الاصول الاجتماعية والدينية :

وهنا يبدو جلياً تأثير العوامل الثقافية في التأثير السلبي على وضعية الأمن الوجودي للانسان المعاصر ، حيث تتحول أزمة الهوية إلى أزمة حضارة ، وهي أزمة ترتبط بفكرة « موت الآلهة » والعبثية الاجتماعية . وعلى العموم يلاحظ أن كل شيء هنا يرتبط بمسألة نمو النزعة الفردية التي قمنا بتحليل اصولها التاريخية . وفي هذا الصدد تؤكد مختلف العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية أن انسان الحضارة الصناعية لم يستطع أن يصل إلى الاحساس بالأمن الوجودي **Sécurité ontologique** وهو الاحساس الذي يشكل منطلق الثقة بالنفس . فانسان اليوم يعيش أزمة

معاناة وجودية خالصة . وذلك يشكل عملياً المحرك الأساسي لهزيمة الإنسان المسبقة : نمو متسارع لاحتياجاته ونمو سرطاني لفردانيته واحباطاته الدائمة .

انهيار الأسس الخاصة بالهوية :

إن الحاجة إلى بناء علاقات عاطفية ايجابية تشكل نقطة انطلاق نحو بناء الهوية المتكاملة . ومن أجل استجلاء هذه النقطة لا بد لنا من معالجة المحاور التالية :

نسبية القيم والنماذج :

تتجلى هذه النسبية بوصفها سبباً ونتيجة للتغير الاجتماعي الدائم في آن واحد . ويعد التغير اليوم سمة المجتمعات الحديثة المعاصرة . وهو التغير الذي يعرّض القيم كلها والنماذج جميعها لعملية نقدية وذلك تحت تأثير تطور دينامي اقتصادي ثقافي يتميز بالخصوصية والتسارع .

وما يشهد على هذه الحقيقة يتمثل في الإخفاقات المتلاحقة التي اصابت النظامين الثقافيين العالميين : النظام الرأسمالي الذي توجهه الولايات المتحدة الأمريكية والنظام الإشتراكي الذي يقوده الإتحاد السوفيتي . إن سقوط هذين النظامين الايديلوجيين يؤدي إلى أزمة الهوية المعاصرة ويكشف عنها في آن واحد .

إن التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية تؤدي إلى نمو كبير في إمكانيات الخيارات المتعددة التي يطرحها المجتمع الصناعي أمام أفراده . يلاحظ هنا أن التحديث يترافق مع نمو كبير في نسق الخيارات المتاحة . إذ يمكن للفرد أن يختار طرق الاستهلاك المناسبة ، ونمط الحياة المرغوبة ، ونظام القيم المرجعية . وهنا تمارس وسائل الاعلام الجماهيرية (Mass – Media) دوراً كبيراً في تقديم مجال واسع من القيم النموذجية المرجعية ، وذلك عندما تتيح هذه الوسائل امكانيات واسعة لمعرفة ما يحدث في أنحاء متفرقة من العالم .

ويذهب بعض الباحثين في هذا الخصوص إلى الاعتقاد بأن تأثير وسائل الاعلام يعمل على هدم الانسان واستلابه (cazaneuv) . ومع ذلك فإن هدم الشخصية فعل يباشر هؤلاء الذين لم يعرفوا التلفزيون في مراحل طفولتهم بالدرجة الأولى . وذهب بعض آخر إلى الاعتقاد بأن التذبذب الدائم في منطقية العرض يمنع بناء هوية متماسكة عند الإنسان المعاصر (S.Lipotveski) ومن أهم الوسائل الإعلامية التي تمثل ذلك يمكن الإشارة إلى التلفزيون بوصفه نظاماً مرجعياً للقيم وهو أداة اعلامية تمكن الفرد من خيارات متعددة غير هذه التي توجد في وسطه وهي ترضي الفرد على نحو سلبي وتجعله على مسافة وهمية من المشكلات التي يواجهها الإنسان المعاصر . فالتلفزيون يحوّل الإنسان إلى مشاهد للعالم ويدفع به إلى تراجع عقلي وإلى موقع الإحساس باللا مسؤولية .

ويمكن القول من جهة أخرى إن نظام القيم الخاص بالمجتمعات الحديثة يمتلك على دينامياته الخاصة التي تؤدي إلى خرق مستمر لقيمه

لداخلية . فالتحديث يشتمل في واقع الأمر على قيمة التغير الدائم والذي يؤدي إلى نفي دائم للقديم ، وهو نفي يمهد لولادة قيم أخرى جديدة . ولكن يمكن القول أيضاً بأن النقد الذي يتناول القيم يفقد طاقته الخلاقة عندما يكون في حالة تناظر مع أزمة الثقة ومثل ذلك النقد يمكن أن يكون هداماً بذاته .

فأزمة الهوية المعاصرة هي بالضرورة أزمة أنظمة القيم السائدة (D.Beel) . ويلاحظ أن أزمات الهوية ، غالباً ، ما تكون من تصيب المثقفين الذين يوجدون في حالة اتصال دائم مع انساق قيمية متعددة ، والذين يتوجب عليهم ايجاد نظام متكامل من القيم ، يستطيع أن يعكس وضعية التغيرات الخاصة بالبيئة .

ويشكل هؤلاء المثقفون اليوم فئة اجتماعية تعاني بنفسها من أزمة الثقة بالنفس ، وتعاني من صعوبة أداء دورها كاملاً ، أو القيام بدور المعارضة . وينبني على ذلك أنهم يُفسرون بنقدهم اتجاهات التقدم والانسانية والعقلانية .

« لقد أفرغت مفاهيم التقدم والانسانية والعقلانية من مضامينها وذلك لأنها أصبحت أدوات إيديولوجية للهيمنة الغربية على العالم . وهي ضمناً ليست مفرغة من قيمة الحرية فحسب بل تتعارض معها بدرجة عالية . ويضاف إلى ذلك ما يتعرض له مفهوم العقلانية من التشويه المستمر .... إن تعدد انظمة القيم يأتي تعبيراً لعملية تعزيز التناقضات التي تقوم بين القيم العصرية المفضلة والقيم القديمة » .

ويلاحظ اليوم أن النماذج الاجتماعية تميل إلى التعقيد والانهيار في

آن واحد . إذ يلاحظ في البداية أن الغيريّة تسمح لكل فرد أن يتمايز أو أن يذوب ويتلاشى . وهنا تكمن النتيجة التي تعبر عن أزمة القيم الثقافية والتي تعكس مقوّمات النقد العقلاني فالعائلة العادية هي التي تنجب الشخصيات العصابية كما يعتقد معارضو الطب النفسي . والعاديون هم الذين ينجبون الشخصيات الإجرامية أو المنحرفة ....

ويبدو أن معاصرينا قد أصيبوا بالذهول والدهشة إزاء التغيرات السريعة الجارية داخل النماذج الاجتماعية التربوية . لقد كان دائماً من السهل جداً الاستناد إلى نماذج تربوية معروفة (الأجداد ، الآباء) وذلك بدلاً من البحث عن نماذج جديدة . ولكن النماذج تتغير سريعاً ولا يمكن لأحد أن يرى بدقة النماذج الجديدة التي تطرح نفسها .

تلقى الحملة الاعلامية الداعية إلى المساواة بين الجنسين صدى مرغوباً في وسائل الاعلام . ولكن هناك موجة من الاحساس بانعدام الأمن تنال الرجال حيث يشعرون بأن هذه الحركة الاجتماعية تمثل مؤشرات تهدد بزوال اطار اجتماعي مرجعي تحدد في اطار الزمن الماضي ، والذي يتضمن قيم دونية المرأة وقيم تعبر عن سيادة الرجل . ولكن النموذج القديم ترك مكانه لنموذج جديد يتمثل في المساواة الجنسية والمساواة في أدوار كل من الجنسين . ولم تنتشر مثل هذه الأفكار في كل مكان ولم تصبح واقعاً عملياً . ومن هنا يشكل العمل بوحي الأفكار الجديدة ينبوع القلق الذي نجده عند الانسان المعاصر .

إن انهيار احساس الثقة بالنفس والآخر ، داخل أنظمة القيم الثقافية ، وداخل الأنظمة الاجتماعية ، من شأنه أن يعزز مواقف

اللا مسؤولية وأن يؤدي إلى نمو النزعة السلبية والاتجاهات الفردية . حيث لا يبقى هناك شيء يمكن للمرء أن يؤمن به سوى الذات عينها (Soi – même) . ولكن هذه الذات لا يمكنها أن تكون قوية متماسكة كما سبقت الإشارة وذلك لأنها محاطة بأطر منطقية ونماذج متضاربة ومتناقضة .

لا يمكن اليوم للانسان المعاصر أن يتملك على احساس الثقة بالنفس ويبدو أن ذلك التملك في غاية الصعوبة . فالعمليات التي تؤكد النزعة الفردية في الغرب المعاصر تعود إلى انحلال الأنظمة المتكاملة . فالانسان المعاصر لا ينفتح على أية تجارة ليس لها قيمة بالنسبة لوجوده الخاص .

ويترتب على ضياع مشاعر الاحساس بالهوية : الاحساس بالوحدة والتماسك والاستقلال والتمايز والقيمة والثقة بالنفس . وفقدان امكانية بناء احساس بالوجود يقوم على أساس « الجهد المركزي » (Effort central) . ومن أجل التعويض يكرس الإنسان المعاصر جهوده لإزالة العقبات التي تعترض حريته الفردية (الآخرون ، البيروقراطية) ، ولكن خياراته المتاحة تدور في دائرة مفرغة من غير نهاية . فالاحتجاجات المتعددة ليست كما يعتقد ميشيل (M.Michel) إلا تعبيراً عن أزمة شاملة للهوية ، والشيء نفسه ينسحب على مسألة التضخم في الميزانيات ، والتي تبدو كنشاط تعويضي لمجتمع لا يعرف الغاية التي يضحي من أجلها . فأزمة الهوية كما لاحظنا تدفع الإنسان إلى الهزيمة المسبقة والمبكرة .

استلابات الهوية :

Les aliénations de l'identité

تقتضي الضرورة منّا في هذا السياق أن ننتقل من دراسة تصدعات الهوية إلى دراسة حالات الاستلاب الحقيقية التي تتعرض لها .

تعاني الهوية من حالة استلاب حقيقية وذلك عندما تتعرض إلى تأثير نظام من العمليات الخارجية التي تعمل على احداث تغيّرات عميقة في جوهرها .

ويترتب عند حدوث الاستلاب ولادة الإحساس به . ويعني ذلك شعور الفرد بالتغيرات الحاصلة واحساسه بوضعية استلابه سواء على مستوى الفرد والجماعة والثقافة .

فالإكراه الاستلابي يجري في صيغة اشكال مختلفة . وتتباين هذه الصيغ الاستلابية بتباين الأفراد أنفسهم وبتعدد الجماعات . فهناك في الواقع حساسية خاصة تجاه ظروف الاستلاب . وهي تختلف أيضاً باختلاف الأشخاص . وتتمثل هذه الحساسية في أسس الشعور بالثقة بالنفس . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف يولد شعور الثقة كانعكاس للتماسك والتكامل الذي يتميز به الوسط التربوي أو الثقافي المرجعي .

وتجري عملية الاستلاب وفقاً لمبدأ غسل الدماغ (De Cerveau Lavage) ولمبدأ التطبيع القسري كما يتم ذلك عبر تحديدات قسرية لهوية سلبية عبر عملية هدم بنية الشخص .

١ ــ الاستلاب والطبيعة الانسانية :

يقال عادة إن الانسان يتعرض لعملية استلاب وذلك في سياق بعض الحالات التي لا يجد فيها الفرد داخل وسطه التربوي أو الثقافي الأولي ما يعزز شعور الفرد بوحدته الذاتية أو ما يؤكد هذه الذاتية .

يصف B.Bellelhein في كتابه « أطفال الحلم » « du reve les enfants » التربية السائدة في الكيبوتز – Kibboutzs وهي مزارع جماعية يهودية . بأنها تتعارض مع التربية اليهودية التقليدية التي تجري في الغيتو « Ghettos » في أوروبا المركزية . ويبين أن التربية في الكيبوتز تربية تفتقر إلى العلاقات العاطفية مع الكبار (عزل الأطفال عن امهاتهم ، تنظيم زيارات الآباء ، عقوبات حين يلاحظ وجود تعلق مع المربين) كما أنها تتصف بأهمية الجماعات المزدوجة (إيجاد علاقات بين اثنين فاثنين ، حياة جمعية ، قرارات جمعية) وتتصف أيضاً بالتسامح الخاص بالنظافة الجسدية ، والجنسية التي تقوم على أساس المراقبة الشخصية ، أي تحت تهديد الجماعات المزدوجة ، وبالتالي على أساس المشاعر والرغبات ، ومن خلال النماذج الأخلاقية الخاصة بالجماعة والتي تتم عبر شخصيات الأبطال الكيبوتز » . وغني عن البيان أن ذلك النظام التربوي يؤدي إلى

وجود بعض السمات الشخصية الخاصة مثل انعدام القدرة على الدخول في علاقات عاطفية مع الآخرين ، ونقص القدرة على اتخاذ القرارات الشخصية .

ألا يمكن لنا في هذا السياق أن نقول أن أطفال الكيبوتز يتعرضون لعملية استلاب تربوية ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال مرهونة إلى حد كبير بالتحديد الذي يعطى إلى الهوية الأخلاقية . ففي المجتمعات الغربية يقوم النموذج التربوي ، على سبيل المثال ، على أساس من تطوير القدرة على الاستقلال والثقة بالنفس ، وتطوير الطاقات الذاتية الخاصة بتحقيق النجاح . وفي اطار هذه الثقة فإن كل الشروط التربوية والاجتماعية التي لا تسمح بنمو هذا النموذج الخاص بالهوية الفردية شروط وظروف تؤدي وظيفة الاستلاب .

وفي هذا الصدد ، وانطلاقاً من انموذج معياري للهوية الإنسانية المتكاملة ، يحكم عدد من السوسيولوجيين على الثقافة الغربية وعلى بعض شروط العمل المهني بوصفها عوامل استلابية .

يمكن في هذا الخصوص استعراض اراء كل من هورني Horney وفروم E.Fromm حول الثقافة الغربية . حيث يؤكد الكاتبان بأن الثقافة الغربية ثقافة استلابية ، وأنها تؤدي إلى ايجاد شخصيات عصابية تخشى من الحرية . وذلك كله لأن هذه الثقافة تركز على التربية انطلاقاً من وضعيات مرضية قائمة على أساس المنافسة والاخفاق والتردي والعزلة العاطفية . فالطبيعة الانسانية التي تحتاج إلى المشاركة العاطفية والأمن والثقة لن تستطيع في إطار هذه الثقافة أن تنمو وتزدهر بشكل

طبيعي . ومن أجل مواجهة هذه الوضعيات ، فإن الانسان المعاصر يطور في داخله جملة من العمليات النفسية السلبية من أجل التعويض الوهمي عن حالة انعدام الأمن وانخفاض قيمة الانسان .

وفي اطار البحث عن وصف لعمل الأطفال في مناجم الفحم في القرن التاسع عشر ينظر كارل ماركس إلى شروط وجودهم بأنها شروط استلابية . والملاحظات التي يشير إليها ماركس في هذه الصدد تأخذ وضعيات مختلفة :

١ ـــ غياب الأمن في اطار وضعية العمل حيث لا يوجد الأمن المادي الكافي بالنسبة للعامل .

٢ ـــ انعدام المسؤولية والاستقلالية عند العامل ويتمثل ذلك بالمكانة الدونية التي يحتلها الانسان في اطار عملية الانتاج هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يلاحظ خلو طبيعة العمل نفسه ، وذلك في أغلب الأحيان من أية فائدة ممكنة .

٣ ـــ تؤدي وضعية العمل هذه إلى ازدراء الانسان ومنعه من أي تقدير للذات حتى من خلال الصور الاجتماعية السلبية والتي تتوارد على خواطر العمال دون انقطاع . في إطار هذه الشروط يفقد العامل (هويته الحقيقية) .

نعلم الآن أن بعض الوضعيات الخاصة تؤدي إلى تشويه الهوية وخاصة هذه الوضعيات التي تؤدي إلى دائرة اللاأمن والتبخيس ، ولكن غالباً ما يكون التعميم مبالغاً فيه إذ يلاحظ ميل المحللين النفسيين والسوسيولوجيين إلى الاعتقاد بأن مشكلات مرضاهم هي مشكلات

ذات طابع شمولي . وبالتالي فإن علماء اجتماع العمل ينسون بأن هوية الانسان ليست فحسب هوية لعمل فهي تحدد بالاضافة إلى ذلك وفقاً لمعيار الانتماء إلى جماعات مختلفة .

ومثال ذلك شروط العمال الافريقيين التي وصفت من قبل بارو J.Baro حيث تدفع هذه الشروط الانسان إلى وضعية مادية واخلاقية رهيبة ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بأنهم يتعرضون للاستلاب .

فالعمل بالنسبة لهم يعني وسيلة عودة جميلة إلى بلادهم وبالتالي فإن هويتهم تمثل في الهوية التي يمكن أن تتحقق في إطار ثقافتهم الأصلية (وخاصة عندما يصبح أحدهم حاجاً) ولذلك فإن هويتهم الاجتماعية لا وجود لها إلا في اطار وسطهم الاجتماعي المرجعي . والهوية الفردية توجد كلياً في اطار الهوية الاجتماعية المستقبلية .

إن غالبية التفسيرات الجارية حول مسألة أزمة الهوية التي يعيشها الغربيون تنطلق من مبدأ النقد الذي يوجه إلى شروط الاستلاب والتي تتمثل في جملة الشروط الاجتماعية والثقافية الاستلابية التي تمنع من ازدهار الطبيعة الانسانية . وتنطلق هذه التفسيرات من اطار تحليل عفوي لصيغة الأطار المرجعي الخاص بالهوية الانسانية النموذجية .

وغالباً ما تكون النماذج المثالية المطروحة نماذج ثقافية ومثال على النموذج الذي يطرحه ماسلو A.Maslow حيث تعني الهوية الحقيقية بالنسبة إليه النمو المتكامل للقدرات الطبيعية عند الانسان :

١ ـــ القدرة على ادراك الحقيقة .

٢ ــ قبول الذات وقبول الآخر

٣ ــ العفوية والبساطة .

٤ ــ الاستقلال والحياة الشخصية .

٥ ــ الاستقلال المتنامي والقدرة على المقاومة .

٦ ــ اصالة الحكم على الأشياء

٧ ــ الوصول إلى تحقيق تجارب غائية .

٨ ــ التوافق مع الانسانية أو التوحد مع النزعة الانسانية .

٩ ــ تطوير العلاقات التي تقوم بين الفرد والآخرين .

١٠ ــ سهولة قبول الآخر والتوافق معه .

١١ ــ نمو القدرة الخلاقة والابداعية .

١٢ ــ قابلية النظام القيمي الخاص بالفرد للتطور .

١٣ ــ النظر إلى النفس من خلال الروح المستقبلية .

إن الاستلاب الخاص بالكفاءات الطبيعية يقتضي وضعية تربوية جديدة أكثر مرونة وتسامحاً وحرارة واثارة الخ . والتسمية العامة لهذه التربية هي التربية غير الموجّهة .

وهنـاك نماذج أخرى طرحت لتحديد الهوية المثاليـة التي تمكّن المجتمع من ايجـاد اناس لمجتمعـات تقـليدية . وذلك بافتراض أن هؤلاء الناس لا يعرفون أزمة الهوية فالشعور بالأمن ينتج من ادراك المكان الذي يحتله الانسان التقليدي في الكون : مكان على مستوى الكون ، مكان بين الأحياء والأموات ، مكان في إطار التنمية الاجتماعية الثابتة ،.

هؤلاء الناس يملكون شعوراً قوياً بالمشاركة التي تحمل دلالة ومعنى

حقيقيين . ويقوم ذلك الاحساس على أساس من الاحساس الديني والاحساس بالانتماء إلى القبيلة . فالاسس المرجعية للهوية هي أسس جماعية وليست أسساً فردية نرجسية كما يحدث في إطار المجتمعات الغربية المعاصرة . إن استلاب الانسان المعاصر في الغرب يعود إلى التوجه الكلي نحو تحديد الهوية وفقاً لمعايير الملكية المادية .

٢ ـــ الاستلاب والتطبيع القهري

يتداخل مفهوم التطبيع (Acculturation) في معناه العام مع مفهوم التنشئة الاجتماعية (Socialisation) ، التي تعني من حيث المبدأ جملة العمليات التي تجعل الفرد يتعلم انماط السلوك ومعايير الجماعة وقيمها بطريقة تسمح له أن يكون مقبولاً فيها وأن يشارك في نشاطها دون صراع .

تعني كلمة تطبيع التغيرات التي تحدث داخل جماعة على أثر الاحتكاك الثقافي المستمر مع جماعة أخرى أكثر قوة والتي تشتمل على ثقافة أخرى . والتغيرات التي تحدث تباشر النظام الثقافي في إطار قيمه وتصوراته ومقدماته أو في أغلب تعبيراته الثقافية : استخدام الأشياء ، التعبيرات الجماعية على سبيل المثال .

يقال عادة أن هناك تطبيع عندما تفقد الجماعات الثقافية بعضاً من عناصرها الثقافية . وعندما يترافق ذلك بفقدان بعض انماط السلوك النموذجي والعادات والتقاليد المعهودة . فالتطبيع الثقافي يتمثل في عملية

الانتقال من نظام ثقافي إلى آخر ، وبالتالي فإن التمثل الكلي للقيم الثقافية لا يتم دون صعوبات كما سنرى لاحقاً .

فالتطبيع القسري كما يرى باستيد (Bastide) يحدث تحت تأثير جماعة ضاغطة تهيمن على جماعة أخرى . والوضعية الاستعمارية هي التعبير النموذجي لعملية التطبيع القسري .

فالاستعمار في صيغته الخالصة يفرض على المجتمع الذي يخضع لسيطرته نماذجه الثقافية الخاصة بالهوية ، وهو يمارس اشكالاً مختلفة من الضغط والاكراه (الفيزيائي، الاقتصادي، النفسي)، وذلك من أجل دفع المجتمع المستعمر إلى التكيف مع هوية أخرى مختلفة . ويضاف إلى ذلك أنه يدفع كل فرد إلى تبني هوية فردية أخرى ، وإلى تمثل سلوك آخر ، وسمات شخصية أخرى . كما يعمل على تغيير البنية الاجتماعية للجماعة وإلى احداث تغيير عميق في نظامها المرجعي الثقافي (أي القيام بانماط سلوكية مجانسة لسلوك الجماعات الغازية) .

وهنا تبرز أهمية الاكراه السيكولوجي كإحدى العمليات القسرية التي تدفع أفراد الجماعة إلى اكتساب هوية سلبية . فهوية الجماعة المستعمرة تختلف عن هوية الجماعة التي تستعمر ، وبالتالي فهي تتعرض لعملية تبخيس دائم وبالتالي فإن الهوية الغازية تطرح نفسها كنموذج للهوية المثالية .

ومن هنا فإن أية محاولة تبذل من أجل تحقيق التوافق مع الهوية المطروحة كنموذج تحظى بالتشجيع والمكافأة . وتؤدي عملية التطبيع القسري هذه دائماً إلى ولادة هوية متشظرة أو متشظية . والثقافة التي تنشأ

تحت تأثير عملية التطبيع هذه كما يقول بواريه J.Poirier هي ثقافة متناقضة أو مشوهة تنطلق من معيارين متناقضين هما : الثقافة الأهلية التي تمثل تراث الآباء والأجداد ، ثم الثقافة الدخيلة التي تمثل المعاصرة . وبالتالي فإن هذه الازدواجية الثقافية تطرح نفسها في كل المجالات : التقنية والاقتصادية ، وفي إطار البيئة الاجتماعية ككل ، كما في داخل الحياة الدينية والفنية . فهناك ازدواجية في الهوية تعود إلى وجود نموذجين يتميزان بالأصالة .

إن الاكراه والاستلاب أمران يعودان إلى وجود نموذجين ثقافيين متناقضين لا بد من وجودهما بالضرورة وبالتالي فإن الجماعة الخاضعة للاستعمار تدرك بأنها حين تذوب داخل النموذج الحديث بأنها تقتل نموذجها الثقافي والتقليدي وتفقد هويتها الأصلية . ومن جهة أخرى حين تتوافق الجماعة كلياً مع الثقافة التقليدية فإنها تفقد الخصائص والفوائد السيكولوجية (الحرية والابداع) التي ترتبط بالنموذج الثقافي المتقدم .

وفي هذا السياق يدرك الفرد ، الذي يعيش داخل هذه الثقافة الممزقة ، الإشكالية الثقافية ومضاعفاتها النفسية . وبالتالي فإن الإكراه الملّح الذي يدفع الفرد إلى تحقيق خيارات مستحيلة يحيي في الفرد إحساس الاستلاب . حيث يشعر بأنه سجين ومقهور وأن كل سلوك ، مهما يكن أمره ، يمده بإحساس المرارة ويغرس لديه مشاعر الكآبة . وذلك يشكل منطلق الإحساس المتنامي بالبؤس الجماعي والفردي . ومن هنا ينطلق مثقفو الجماعة لمعارضة التأثيرات الثقافية الخارجية وذلك بغاية الخروج من دائرة الاستلاب . وهكذا تتمثل اعتراضات البحث عن الهوية في

البداية في شكل المطالبة بالاستقلال السياسي ثم الاستقلال الاقتصادي وادانة النظام الرأسمالي الجديد .

ومثـل هذه النزعـات الاستقـلالية غير كافيـة في رأي بورييـه (J.Porier) من أجل دفع الإحساس بالاستلاب الذي يرتبط في النهاية بالاستـلاب الثقـافي . فالإعلان عن الوحدة الذاتيـة الثقافية يؤدي إلى أساطير وخرافات تعويضية عن حالة القهر : الحركات الدينية ، الانتماء إلى جماعات سرية ، التاريخ الأسطوري ، الخرافات الخاصة بالزنوج .

الاقتلاع الثقافي

يشير التطبيع القسري إلى تعرض ثقافة ما ، أو جماعة ما إلى عملية غزو تقوم بها جماعة أو ثقافة أخرى . ويتشاكل الاستلاب الذي يفرضه التطبيع القسري بالضرورة مع ظواهر الاقتلاع الثقافي : وهي حالة يجد فيها الفرد نفسه أو الجماعة أو المجتمع داخل غمار حياة أخرى أو ثقافة أخرى تختلف عن ثقافته الأصلية أو عن حياته المعهودة . ومن هنا ينظر إلى ذلك الانسان بوصفه مهاجراً ثقافياً Migrant Culturel .

ومن هنا يلاحظ أن التغيرات التي يحدثها العالم المعاصر تؤدي إلى خلق ظاهرة الغربة الثقافية وأن اعداد المغتربين الثقافيين تتزايد يوماً بعد يوم على نحو تدريجي .. ومن أجـل ادراك مبدأ الاستـلاب الذي يعزى إلى الاقتـلاع الثقـافي يجب علينـا أن نشـرح العلاقات التي تقوم بين الحياة والنظام الثقافي .

هنــاك فكرة تقول أن نمط الحيــاة يؤدي إلى تشكيــل اكراهات أســاسيــة تفرض نفسها على الناس وتحددلم منطقهم الحياتي . حيث تنطوي كل وضعية حياتية أو كل وضعية من وضعيات العمل على منطق ضـمـني مستـتر وهي الوضعيـات التي تفرض على النــاس قسـوة الحيـاة ومنطقها . وبالتأكيد فإن ذلك المنطق يأخذ مداه وتأثيره في المراحل الأولى من الطفولة وذلك على مستوى الحياة النفسية ، حيث تتشكل في هذه المرحلة العناصر الأساسية المشكّلة للهوية .

ويمكن لهذه الأسس الذاتية ان تفسر كما لاحظنا سابقاً جانباً من نسق التشــاكل والتماسك حيث يوجد هناك تنـاقض بين منطق الحياة والنظام العقلي ، الخاص بالمقدمات الأولية التي تؤطر تربية الأفراد داخل وسطهم المعني . عندما يكون الأفراد في الوسط الذي يتشكلون فيه فإن كل شيء يجري على نحو طبيعي ، وبشكل جيد ، فهم في مرحلة يسود فيه النظام الثقافي للوسط ، وهم يعيشون منطق الاكراهات الخاصه بوسطهم الحياتي . ولكن الضعف والضغط وردود الأفعال الدفاعية الخاصة بالهوية تتبدى وتظهُر عندما يكون الفرد في إطار وسط آخر ليس له المنطق نفسه الخاص بالوسط الطبيعي الذي يعيش فيه الفرد ، أو عندما يتعرض وسطه للتغير السريع أو عندما يغير الفرد وسطه الطبيعي .

فالدراما الخاصة بالهجرة الثقافية لاتعزى إلى منطق القهر الثقافي فحسب بل تعزى أيضاً إلى عمليات الاستبعاد والاقصاء التي يقع الأفراد ضحية لها . فالأفراد هنا يعانون من التمييز الاجتماعي بوصفهم أجانب من جهة وهم يعانون من استبعاد مجتمعهم الأصلي من جهة أخرى .

وتبرز خطورة المأساة الخاصة بالهوية عند أطفال الجيل الثاني (الأطفال الذين ولدوا في مجتمع الغربة لآباء أجانب) حيث يعاني هؤلاء الأطفال من جهل عميق بثقافة مجتمعهم الأصلي ، وهم في الوقت نفسه يعانون من رفض المجتمع الذي يعيشون في وسطه . ومن هذا المنطلق فإنهم يعانون من مشكلات خاصة بوسطهم العائلي الذي يشكل مصدراً للنقد الذي يوجه إلى نمط حياتهم وسلوكهم . ومثل هذه المجموعة من العوامل لا تسمح ببناء شخصية ايجابية . فالمشاعر الخاصة بالانتماء والتماسك والثقة تتخلى عن مكانها لمشاعر عميقة بالاستلاب والاغتراب . وبالتالي ان ردود الأفعال العدوانية والتي تتصف بالعنف هي بالدرجة الأولى احتجاجات تطرحها أزمة الهوية والانتماء .

٣ ــ الاستلاب والتبخيس الشخصي (Dépérsonalisation)

يرى سارتر أن وضع الآخرين تحت سلطان المراقبة والنظر قد يكون شكلاً من أشكال الاستلاب وذلك يعني أن النظر إلى الآخرين قد يؤثر على حريتهم وقد يضايقهم ويكرههم على الانتباه . وعندما تكون تحت تأثير نظر الآخر فهذا يعني أنك تقع تحت تأثير احكامه وهذا التأثير قد يعطيك رؤية مشوّهة عن ذاتك وهويتك . وهنا تكمن دلالة سارتر في تحديده لمسألة الهوية .

عندما ينظر الآخر إليّ وعندما يتخذ موقفاً مني يسهم في تحديد هويتي ويدفعني إلى السلوك بطريقة تستجيب إلى التحديد الذي وضعني في دوائره . فالآخرون هم الجحيم ويمكن للعلاقة معهم أن تكون بطريقة

ما علاقة استلابية . ومثل هذه الاطروحة تنطوي على جانب جزئي من الحقيقة . فأنظار الآخرين لا يمكن أن تكون دائماً حاملة لخاصة الاستلاب ، إذ يمكن لنظرة الآخر أن تكون حارة ودافئة وودية ، وهي بذلك تحمل في طياتها الاعتراف بالهوية وترسخها . وخطر الاستلاب قد يكون في موقف الشك والريبة الذي يتخذ إزاء الآخرين .

وكما هو الحال في نظرة الآخر ، فإن عمليات الاستلاب الحقيقية تتجذر في تقنيات خاصة تهدف إلى احداث تغيرات عميقة داخل الأفراد وداخل الجماعات : تقنيات غسل الدماغ ، اعادة العمليات التربوية . ويمكن لعمليات معاودة التربية Réducation أن تبدأ على سبيل المثال عبر عمليات التعذيب والتبخيس : العزل ، التفريغ ، القهر وإزالة صورة الذات ثم التعذيب الفيزيائي والاخلاقي ، وأخيراً عن طريق هدم الوحدة الذاتية ، وتعبئة الشخص في نظام عبودي (I.Goffman) .

لقد أدت الابحاث الجارية حول الأنظمة المعرفية الإدراكية والثقافية (P.Watz Lawick – G.Bateson) ، والتي جاءت على أثر الدراسات التي أجراها بافلوف Pavlov حول الدماغ ، إلى اكتشاف مفاده أن التغيرات التي تحدث حول المعلومات التي تصدر عن الوسط ، أي في الإطار المرجعي ، تُكْرِهُ التفكير على اعادة تنظيم نفسه ، والمحيط المطلوب تغييره هنا هو المحيط الادراكي الانساني والجسدي والعاطفي والانفعالي ، ومن هنا بالذات تنطلق محاولات اعادة التربية أي من خلال الابعاد المختلفة للوسط .

إن ضرورة التغيير الشمولية للوسط كانت غالباً ما تؤدي إلى إيجاد

انظمة تسلطية وإلى عملية تبشير ديني وإلى عملية اصطفاء في مرحلة الطفولة : تعلم الصلاة قبل التفكير ، تعلم قراءة الانجيل ، تعلم الرسم بطباعة الشعارات ، والمشاركة في التسلية والأنشطة الثقافية التي تحمل قيمة ثقافية واحدة ، تعلم الرموز والخرافات المتداولة داخل الوسط .

ردود الفعل الدفاعية :

تؤكد الهوية الطبيعية نفسها من خلال ايجاد علاقات بيئية تستجيب للحاجات الأساسية الخاصة بالأساس الخاص بالهوية والوجود . وإذا كانت الهوية تسعى إلى المحافظة على تكاملها وقيمتها فإنها تقوم بعمليات دفاعية شخصية واجتماعية في آن واحد (A.Mucchielli) ..

وتختلف هذه العمليات عن هذه الخاصة بالذات « الأنا » والتي يوضحها لنا المحللون النفسيون والتي تهدف إلى حماية الذات ضد احساس القلق الداخلي .

ويبين التحليل الخاص بمسألة ردود الأفعال (الفردية أو الجماعية) تجاه تهديدات الهوية وجود ثلاثة فئات رئيسية من السلوك : الهروب والمهاجمة أو السلبية . ويتمثل الموقف السلبي في عمليات كبت النفس والتكتم والانكماش أمام الخطر من أجل تجنبه ، وأخيراً الاقتراب أو المقاربة (حيث يتم التوافق مع موضوع الخطر أو تبريره من أجل جعله حيادياً) .

وسنعمل هنا على دراسة العمليات الجارية الخاصة بالدفاع عن الهوية وهي العمليات الأكثر شيوعاً وتوتراً في العصر الراهن .

الهجوم والخوف الدفاعيان

تجسد هاتان العمليتان دون شك ظواهر العنف الاجتماعي ، والتي ما زالت حتى أيامنا هذه الأكثر شيوعاً . فالحروب الدفاعية ظاهرة معروفة في كافة الأزمنة ، وخاصة في مجال الدفاع عن الهوية الوطنية . وغالباً ما تكمن أسباب الحرب في اغتصاب ملكية أو في مخاطر حيوية تهدد الهوية . والحروب الثورية والدفاعية معروفة أيضاً . ولذلك فإن الجماعات التي تشعر بأنها مهددة تناضل لتسحب اعترافات الجماعات الأخرى بهويتها . ومن هنا يمكن أن ينظر إلى عنف جماعات الشباب المبعدين بوصفه تعبيراً دفاعياً عن الهوية .

وتبين الدراسات الخاصة بالعنف الاجتماعي أن الجماعات المتمردة هي جماعات هامشية بالدرجة الأولى : جماعات العاطلين عن العمل والعمال المؤقتون ، والمتمرّنون ، والعمال الفصليون ، وعمال الأسواق السوداء . حيث يلاحظ أن كفاءات هؤلاء الأفراد المهنية لا تسمح لهم بتحقيق ذواتهم الاجتماعية ، والاندماج جيداً في إطار الحياة الاجتماعية .

وبالاضافة إلى حالة انعدام الأمن هذه نجد هناك عملية تبخيس اجتماعية واضحة المعالم وذلك في اطار اشكال متعددة من الرفض الذي يذهب الافراد ضحية له (احتقار اجتماعي ، انعدام الثقة ، المراقبة الأمنية

البوليسية) . ومن ذلك المنطلق فإن احساسهم بالاستلاب يُضاعِف في نفوسهم رغبة الانتقام حيث يرغبون بالتخلص من هويتهم السلبية ويعملون على رفضها (X.Raufer) .

وهنا يأخذ العنف صيغة التهديد والمطالبة في آن واحد (اسمح لي أن أكون شيئاً آخر وإلا ...) . وهنا يتجلى العنف بوصفه ردود فعل ضد حالات صعبة لا مخارج لها من أجل تحقيق الهوية ، وحيازة التقدير الذاتي ، وذلك حين يجد الإنسان نفسه في وضعية تشعره بمضاعفات اختناقية . ويبرز التهديد كسلاح يستخدم في إطار تحولات عاطفية خاصة وذلك كله من أجل تجنب عملية التبخيس المستمرة التي تأخذ طابعاً قدرياً .

فالآلام الهدامة التي تعانيها هذه الجماعات هي أكبر بكثير من المعاناة التي تأخذ طابعاً هجومياً . وبالتالي فإن الهجوم يبدو بوصفه الأداة الوحيدة التي تحفظ للجماعة هويتها المحتملة . وتجري الأمور هنا وكأن الاعتراف بالهوية هو المعنى الوحيد للوجود ، وهي الهوية التي يراد لها أن تكون أكثر أهمية في نظر هؤلاء الذين يمارسون القهر والتعذيب ، وهم الذين يجب عليهم أن يدفعوا الثمن غالياً .

وتعلن بعض الجماعات الإرهابية عن مشاعر الاستلاب عبر عمليات عنف حمقاء . ويكون ذلك عندما تُرْجِع اخفاقها إلى مسؤولية المجتمع ، وتجعل منه كبش الفداء ، وفي هذا الصدد يبين سزاز (Szaz) كيف يعود ذلك الاتهام الدفاعي إلى عمليات دفاعية عامة تتمثل في اكتساب الشرعية عبر استلاب شرعية الآخر .

وهناك بعض الايديولوجيات القومية والدينية التي تبرر للارهابيين امكـانية بناء هوية المواجهة . ومن جهة أخرى تبين الدراسـات الجارية حول الارهابيين وجود تشويش ينال الهوية الخاصـة بهم وخاصة انعدام التجذر الاجتماعي والذي يتمثل في الانتماء إلى عائلات عصابية تمارس فيها السلطة السلبية التسلطية أو وجود مشكلات أخرى أو وجود أشخاص من غير مهنة أو عند الشباب العازب .

إن الاحتجاجات الاجتماعية التي يقودها المثقفون ، كما يرى المؤرخ ديبو (G.Dupaux) ، على سبيل المثال تخفي إلى حد كبير الصعوبات التي يعانونها حيث لا يعترف المجتمع الصناعي بالمكانة التي يجب أن يحظى بها هؤلاء المثقفون . أو لأن المجتمع لا يعـيرهم الاعتبار الذي يقدرونه لأنفسهـم . وبالتالي فإن اخفاقهم ، في الحصول على الهوية الاعتبارية ، يدفعهم إلى اختراع مقولات مثل « المجتمع الاستهلاكي » . ولذلك فإنهم يسخرون من المجتمع الذي لا يعترف بهم على نحو كاف .

فالمعـارضـة التي تكون أكثر أو أقل ميلاً إلى العنف هي وظيفة الجماعات التي تشعر بالاستلاب . ومثال هذه الجماعات جماعات الهيبو « Hippie » أو البـوب « Pop » التي ظهـرت عـام ١٩٦٠ . وهي جماعات تعبر عن ثورة الشباب ضد المجتمع . حيث تنظر هذه الجماعات إلى المجتمع بوصفه مجتمعاً غير طبيعي . وهي بالتالي تعمل على ايجاد الحياة الطبيعية (الحياة الجماعية، الحياة النباتية ، العودة إلى الأرض) . فالمجتمع الذي يتميز بخاصة الوجود الكلي يستلب وعي الذات كما يستلب القدرات الادراكية والتعبيرية عند الأشخاص . ولذلك يجب على الانسان أن يجد

الوضعية الطبيعية الخلاقة (العودة إلى الينابيع الهندوسية وإلى حالة الفرح والسعادة والصفاء الروحي المطلق) . ولذلك فإنه ومن أجل تجاوز الاحكام السائدة في المجتمع يجب أن يتحول الانسان إلى حياته الطبيعية .

وفي هذا السياق يؤكد اليسار الذي يدخل في اطار هذه الحركة العامة الرافضة بأن الأنظمة جميعها تؤدي إلى استلاب الأفراد . وهو يسار يجد مصادره الايديولوجية في إطار الماركسية والفرويدية ، وذلك لأن أية علاقة بالنسبة لذلك اليسار تعبر بالضرورة عن علاقة السلطة ، وعن علاقة السيد بالمسود ، وتؤدي إلى عمليات الهدم بالتحديد . ومن هنا يجب تفجير البنى التي تنطوي على مثل هذه العلاقات . ولذلك فإن اليسار يدعم هؤلاء الذين يعانون من الاضطهاد والاستبعاد (المجانين واللواطيون ، المستقلون وكافة أشكال الحركات الحرة) . وذلك من شأنه أن يجعل من الارهاب شكلاً من أشكال اليسار الذي نفذ صبره . إن ادراك اشكال الاستلاب وتجاوز الأنظمة هو الهدف المنشود للارهاب . وأعمال العنف كما تبدو هنا تسعى إلى استبعاد الاضطهاد الذي تعلنه طبائع الاستبداد الفاشية للدولة .

ويمكن للرفض أن يأخذ أشكالاً تعبيرية أخرى . ونحن نعرف اليوم الحركات المتعاقبة للبينكز « Punks » أو « النيو — واف » « New – wave » وهي حركات شبابية معاصرة . إن استعراض القوة والعنف يمكنهما من تجسيد عمليات تبخيس الهوية الخاصة بالأفراد أو بالجماعات الخارجية .

تنطوي سياسة الهدم إذن على استعراض القوة وذلك من أجل

التنبؤ بامكانيات الهجوم المحتملة ، ومخاطر الاندفاعات الخاصة بالدفاع عن الهوية . وهنا نجد توظيفاً لمبدأ قديم معروف في كل الأزمنة والعصور .

الانهزامات الدفاعية :

يمكن لنظرة الآخر أن تشير أحياناً إلى مخاطر الأحكام السلبية الخاصة بالهوية . وهناك كثير من التجارب والملاحظات السوسيولوجية التي تلقي الضوء على ظاهرة الاقتلاع الثقافي الخاص بعملية تجنب وضعية أن يكون الانسان فيها موضوعاً للمراقبة (E.T. Hall) .

يتمثل الهرب الدفاعي الراديكالي في عملية الانتحار . إذ يلجأ بعض الناس إلى الانتحار لأنهم لا يحتملون ازدراء الهوية وتبخيسها . وتتجلى أشكال التبخيس هذه على مستوى التبخيس الجسدي : انتحار « هيمنغواي ومونيزلان » ثم على مستوى التبخيس الاجتماعي : الانتحار العام لأحد أعضاء القبيلة من غير الشرفاء : ضياع القيمة الخاصة بالرجل الحر . ومثاله : انتحار العبد أو الانتحار التي يسببه فقدان الاعتقاد بشيء ما : خيبة الأمل ، الخيانة ، موت الزعيم ...

وعلى ذلك المنوال يدرس علماء الاجتماع ظاهرة المسافة الاجتماعية « Distanciation » حيث يلاحظ أن بعض الجماعات تحافظ على هويتها وصورتها المميزة وذلك من خلال الابتعاد عن الذوبان في جماعة أخرى ، وذلك بالمحافظة على مسافة أمن اجتماعية . إذ يلاحظ في المدن أن سكان حي ما يغادرون مساكنهم إذ كانت نسبة السكان الخاصة بفئتهم

الاجتماعية أقل من حد معين .

ويلاحظ على المستوى الثقافي أن الجماعات التي تتعرض للاضطهاد تجعل من أساطيرها اسراراً تعويضية تسعى إليها من أجل تعزيز هويتها الخاصة . ويبدو واضحاً أن ظهور الايتوبيا يكون في اللحظة الحرجة في تاريخ تطور المجتمعات الانسانية . وهي تعبر عن وضعية جماعات مستلبة تشهد انحطاطاً في قواها وتأثيرها وأهميتها الاجتماعية أو الاقتصادية . حيث تصبح هويتها الاجتماعية موضع مراهنة . ومن هنا تتحول الايتوبيا إلى اداة تصورية تسعى إلى ازالة وضعية الاستلاب التي تباشر الهوية . فالايتوبيا تنظم مدناً مثالية تزول فيها كل المشكلات والصعوبات (J.Sorvier) .

الحصار والانكفاء الدفاعي :

لقد شاهدنا ، حتى اللحظة ، صورة عمليات كبت مختلفة وانغلاقات دفاعية متعددة ، وذلك عند حديثنا عن الانهيارات الانفعالية الخاصة بالهوية . في مواجهة عمليات التبخيس العاطفي الذي لا حدودله يستجيب الافراد والجماعات وفقاً لآلية الانطواء الدفاعي . ولكن حينما تكون هناك مخارج فإن ردود الفعل تتمثل بوضوح في أشكال انهزامية أو هجومية دفاعية .

وفي هذا الخصوص يمكن للخجل أن يكون أداة جيدة لتأكيد الهوية . فالخجول يعاني من شلل يعود إلى قهر يمارسه حكم الآخرين ،

حيث يوجد دائماً في حالة مأساوية . ومثل ذلك السلوك يعبر عن نقص الاحساس بالثقة بالنفس وهو نقص يعانيه الفرد لأسباب تربوية تقوم على أساس التبخيس الدائم واحكام الدونية (لقد لاحظنا في سياق الحالات المتطرفة كيف يمكن لذلك أن يقود إلى حالة من هدم الهوية في مسألة عقدة الخصاء) .

فالجماعات التي تعاني من هجمة نقدية تنال الهوية قد تختار سياسة الثبات (الموت أو ادارة الظهر). وهي سياسة تعني عدم الاستجابة للانتقادات بانتظار توقف الهجوم.

فالجماعات والثقافات تنطوي على ذاتها من أجل حماية نفسها ضد هجمات العالم الخارجي ، الذي يضعها في قفص الاتهام . وتنغلق على نفسها في دوائر تقاليدها واعتقاداتها السرية الباطنية التي تضمن لها الحماية والتعويض في ان واحد . وفي هذا الخصوص تكون ردود فعل التكامل حالة من حالات التراجع والانكفاء الدفاعي التعويضي . لأن انعدام الأمن الذي يعزى إلى مواجهة صعبة إزاء ثقافة خارجية ، ومخاطر الهزيمة والاخفاق والتبخيس ، تستبدل بالعودة إلى ذوبان خالص داخل معطيات القيم الماضوية أو السلطوية .

ويمكن أن نلاحظ ردود أفعال وتوقعات نقلبية وخاصة عند بعض الشعوب التي تشعر بأنها ضحية ، وأن التغير والتقدم ا ا قد تجاوزاها . وذلك يشير إلى التوازن بين عمليات ك خارجياً والإنسان لا يؤدي أي جهد) ، وعملية رفض متوقع ونقده) .

ويمكن للّلامبالاة الجماعية أن تكون صيغة رد فعل لجماعة ما ضد ثقافة تهدد الهوية الثقافية . ويمدنا ا ريكسون Erikson بمثال عند الاطفال الخجولين الذين أرسلوا إلى مدارس البيض لقد لوحظ أن هؤلاء الأطفال لا يستجيبون أبداً فهم في حالة خجل وتحفظ دائمين حيث يشرح المربون هذه الحالة قائلين : لا يمكن تحقيق التواصل معهم . ان مثل هذه اللامبالاة تساعدهم على الاحتفاظ بهويتهم الثقافية المهددة .

وغني عن البيان أن الكبت الدفاعي يجد صيغته الكاملة في التابو العام . حيث نجد وصفاً لذلك في مجال الايثنولوجيا لظاهرة الجنون القدسي الذي يهيمن على الجماعات الأولية وذلك عندما تتعرض هوية الجماعة للتهديد . فعندما يتعرض الزعيم للمرض في هاواي « Hawai » يتم الاعلان عن تابو « Tabou » عام يستمر عدة أيام حيث يتم فيها اطفاء الأنوار ، وتتوقف المراكب عن الابحار ، وتمنع الكلاب من النباح ، ولا يسمح لأحد بالخروج من المنازل .

خلاصة عامة

استطعنا عبر مقارباتنا لمفهوم الهوية تعريف نماذج متعددة من الهوية : « الهوية الذاتية ، والهوية السلبية ، والهوية الشكلية ، والهوية التفاضلية » .

فالهوية كما عرفناها « مركب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للفاعل اجتماعي » .

والهوية ، بالنسبة للفاعل الاجتماعي ، « مركب من العمليات والطروحات المتكاملة ، التي تفسر العالم وتأخذ صيغة تعبيرية خاصة نطلق عليها النواة الهوياتية . وتضرب الهوية الذاتية للفاعل الاجتماعي جذورها في غمار الاحساس بالهوية الذي يمنح الكائن الاجتماعي التماسك والتوجه الدينامي على نحو شمولي .

لقد استطعنا ، عبر تحليل مفهوم الاحساس بالهوية إلى عناصره الحسية الأولية والتي تتمثل في الإحساس المادي ، والإحساس بالانتماء ، والتماسك ، والاستمرارية الزمنية ، والاختلاف ، والتقدير ، والاستقلال ،

والثقة ، والإحساس بالوجود أن نسلط الضوء على مختلف الأزمات التي تتعرض لها الهوية ، والتي تنشأ عندما تتعرض إحدى هذه الأحاسيس أو بعضها للإصابة والتمزق .

وبيّنا في خضم هذه الاحاسيس المتعددة أهمية الاحاسيس بالانتماء والتقدير والثقة . وذلك بالقياس إلى الاحاسيس الأخرى . إذ تضرب هذه الأحاسيس جذورها في داخل الهوية الاجتماعية التي تشكل العمق الانتربولوجي للفرد في إطار مشاركته الوجدانية داخل جماعته الانسانية .

لقد استطعنا أيضاً أن نختبر شروط نضج الهوية ونموها وتعبيراتها الخاصة . واتيح لنا في هذا السياق ، تفسير النماذج الايديولوجية الخفيّة الخاصة بالهويات المثالية . وأتاح لنا ذلك بدوره إدراك العلاقة بين استلاب الهوية وشروط الحياة في المجتمعات الغربية المعاصرة .

كل هوية تسعى ، وذلك أمر طبيعي ، للتحقق وتأكيد الوجود . والهوية المتكاملة هي الهوية التي تتملك قدرات كبيرة وتشتمل على فعاليات مرونة غنية متكاملة مسجلة في أسسها ونواتها. وعلى خلاف ذلك فإن الهويات المفككة تتصف بالصلابة والقصور .

ولكي يتاح للأفراد والجماعات والثقافات الوصول إلى هوية ناضجة متكاملة ــ حيث يتوجب عليها من هذه الزاوية التخلي عن سيرورات الدفاع أو الهجوم وتبني سلوك يقوم على مبدأ الحوار ــ يتوجب خلق الشروط التي تسمح لأحاسيس الهوية البنائية بالتطور لديهم ..

ونستطيع في هذا الخصوص وضع بعض المبادىء العامة القادرة على تشخيص الاضطرابات الخاصة بالهوية القابلة للتطبيق بخصوص

الهويات التي تعاني من أزمة.

إنه لمن الواضح أن المحيط الاجتماعي للفاعل الاجتماعي يشتمل على أهم العوامل التي تؤدي إلى الاضطرابات الخاصة بالهوية . وبالتالي فإنه عندما يتغير الوسط الاجتماعي ــ وهو تغير قد يحدث عفوياً ــ فإن الهوية المتأزمة قد تجد طريقها التطوري الخاص .

تأخذ الاضطرابات التى تصيب الهوية هيئة مشكلات نفسية بالنسبة للأفراد والجماعات والمجتمعات الانسانية . فالتصورات الخيالية تسهم في التشويش على الهوية الذاتية . ويجب من هذا المنطلق التدخل والتأثير في هذه التصورات .

كما هو الحال في أية محاولة علاجية تتبدى أولاً أهمية وعي الحالة . ويتكون ذلك الوعي عبر التفكير في الاكراهات الحادثة ، والاحتجاجات المعلنة ، ومن خلال الاحساس بالاضطرابات القائمة .. ولا يتم ذلك الوعي الاستنباطي بسهولة ولا سيما بالنسبة للجماعات التي تجتر احاسيسها . إذ يتطلب ذلك الاستنباط حضور محلل نفسي أو اجتماعي قادر على مساعدة الفرد أو الجماعة ، ليس على تحديد المشاعر فحسب بل ، على تحديد الطقوس الخاصة بالمشاعر ومخطط العقد والاحتياجات ، وذلك كله من أجل مواجهة الحالة المرضية .

هذا وتستمر المساعدة العلاجية وفقاً لمدى قوة الهوية الحالية للفاعل الاجتماعي ومناحي ضعفها ، وبالتالي فإن هذا يقود الفاعل الاجتماعي إلى بناء اللواحق الأساسية التي يمكن أن تتكامل مع هويته . ومن هنا فإن المحلل يساعد الفاعل الاجتماعي على تشكيل واضح لمكونات

هويته المثالية .

وعندما يتعلق الأمر بالمجتمعات التي توجد في حالة أزمة ، تتصف هذه المـرحلة بالتعقيد والصعوبة ، وذلك لأنها تُبرز إلى الوجود منـاحي الضعف الخاصة بنواة الهوية الثقافية المشتركة .. وتبين التباعد القائم بين العناصر المحددة للهوية المثالية .

وتتبدى في المرحلة الأخيرة للمحـاولة العلاجية ، في عملية بناء برنـامج من النشـــاطات التي تسمح بتطوير الهوية في المنحى المرغوب . وينطلق ذلك البرنامج وبكل وضوح من تحليل الوضعية . ولذلك وانطلاقاً من العـلاقة بين الاكراهات الخارجيـة والقدرات الداخليـة ، والغـايات المرغوبة ، تجري عملية التدريب التي تهدف إلى تحقيق التوازن والتكامل في الهوية .

المصطلحات العلمية المستخدمة في الكتاب

Acculturation	تطبيع
Action sociale	فعل اجتماعي
Activité	نشاط
Adaptation	تكيف
Adolsence	مراهقة
Adulte	راشد
Affection	حنان
Affictivité	انفعالية عاطفية
Affirmation de soi	تأكيد الذات
Âge Mental	العمر العقلي
Agression	اعتداء ـ عدوان
Aliénation	استلاب
Aliénation d'identité	استلاب الهوية

Altruisme	الغيرية
Amitié	صداقة
Amour	حب
Appartenance	انتماء
Approche	اتجاه، منحى
Autonomie	استقلال
Blessure narcissique	جرح نرجسي
Caractère	سمة، خاصة
Castration mental	خصاء ذهني
Complexe culturel	مركب ثقافي
Complexe de castration	عقدة الخصاء
Complexe de superiorité	عقدة التفوق
Complexe d'inferiorité	عقدة النقص
Complexe d oedipe	عقدة اوديب
Comportement rituel	سلوك طقوسي
Conditious de vie	شروط الحياة
Conduite	سلوك
Conflit	صراع
Chosification	تشيؤ تشيء
Confiance	ثقة
Conscience	الوعي

Conscience collective	وعي جمعي
Conscience du soi meme	الوعي الذاتي
Consciense sociale	الوعي الاجتماعي
Crise d'identité	أزمة الهوية
Croyance	عقيدة
Culture	ثقافة
Dépondance	تبعية
Définition	تعريف
Dépreciation	تبخيس
Dépérsonalisation	تبخيس الشخصية
Dichotomie	انشطار
Éducation	تربية
Effort central	جهد مركزي
Enveronement	محيط، وسط
Existence	وجود
Egocentrisme	أنوية
Formation	تشكيل، اعداد
Fantasme	هذيان ـــ هوام
Frustration	احباط
Génétique	وراثي
Groupe	جماعة

Groupal	جماعي
Identité	هوية
Identité individuelle	هوية فردية
Identité communautaire	هوية جماعية
Identité sociale	هوية اجتماعية
Identite de façade	هوية مظهرية
Identité differentielle	هوية تمايزية
Identite attribuée	هوية اضفائية
Identite négative	هوية سلبية
Identité objective	هوية موضوعية
Identite subjective	هوية ذاتية
Identification	تقمص، توحد
Identification culturelle	تقمص ثقافي
Inconscience	اللاشعور
Individuel	فردي
Méntalité	ذهنية، عقلية
Mécanisme	عملية
Norme	معيار
Premesse culturelle	مقدمة ثقافية
Processus	سيروره
Projection	اسقاط

Psychomatique	جسدي نفسي
Psychosocual	نفسي ـــ اجتماعي
Personalitē	الشخصية
Rēaction critiqué	استجابة حرجة
Réfoulement	كبت
Regression	نكوص
Ritc	طقس
Rituel	طقوسي
Systeme culturel	نظام ثقافي
Sentiment	شعور، احساس
Sentiment d'existence	شعور بالوجود
Sentiment d'identité	شعور بالهوية
Sentiment d'appartenance	شعور بالانتماء
Sentiment d'identité	شعور بالوحدة
Sentiment de continuité temporelle	شعور بالاستمرارية الزمنية
Sentiment de difference	شعور بالتمايز
Sentiment de valeur	شعور بالقيمة
Sentiment d'autonomie	شعور بالاستقلال
Socialisation	تنشئه اجتماعية
Surmoi	الأنا الأعلى
Symbole	رمز

Systeme	نظام منظومة
Systeme de valeurs	نظام القيم
Trouble d'identité	اضطرابات الهوية
Unité	وحدة
Valeur	قيمة
Volonté	ارادة
Volonté d'existance	ارادة الوجود

Bibliographie Sommaire

- Adler A., «Le sens de la vie», trad. franc., Payot, 1975.
- Allport G. W.,1937, «Structure et développement de la personalité», trad. franc,. Delachaux – Niestlé, 1970.
- Ardrey R., 1966. «L'impératif territorial», trad, franc. Stock 1967. Aries Ph., 1960, «L'enfant et la vie familiale sous l' Ancien Regime», Seuil, 1973.
- Aron R., 1967, «Les étapes de la pensée sociologique», Galmmard, 1967.
- Aubry J., 1955, «La carence de soin maternel», Centre international de l'Enfance, 1955.
- Balandier G., 1955, «Sociologie actuelle de l'Afrique noire?» UF, 1971.
- Barou J., 1978, «Travailleurs africains en France», Presses Universitaires de Grenbole, 1978.
- Bastide G., 1971, «Anthropologie appliquée», Payot, 1971.
- Bateson G., 1936, «La cérémonie de Naven», trad. franc., Ed de Miniut, 1968.
- Bateson G., 1971, «Vers une écologie de l'esprit», trad. franc., Seuil, 1977.
- Baudouard J., 1973, «Psychosociologie de l'homosexualité masculine», Ed. ESF, 1973.

- Benedict R., 1934, «Echantillons de civilisations», trad, franc.. Gillmard, 1950.
- Bettelheim B., «Les enfanrs du reve», trad. franc.

Boesch E.E., 1975, «La détermination culturelle du soi», in Angelergue, Anzieu, Boesch, Brés, Pontalis, Zazzo, «Psychologie de la connaissance de soi», PUF, 1975.
- Boudon R., Bourricaud F., 1982, «Dictionnaire critique de la sociologie», PUF, 1982.
- Cattell R. B., 1950, «La personnalité», 2 vol., franc, PUF, 1956.

Cazaneuve J., 1972, «Individu et société», in Encyclopédie de la psychologie, t. : Psychologie sociale, F. Nathan, 1972.

Chaunu P., 1978, «La mémoire et le sacré», Calmann – Lévy. 1978.
- Codol J. – P., 1979, «Semblables et différents». Recherches sur la quéte de similitude et de la différences sociale, thése d'Etat, Université ce Provence, 1979.
- Deschamps J. – C., 1977, «L'attribution et la catégorisation sociale», Berne, Ed. Peter, 1977.
- Deschamps J. – C., «Définition de soi et identité», in Doise, J. – C. Deschamps, G. Mungy, «Psychologie sociale expérimentale», Armans Colin, 1978.
- Durkheim E., 1898, «De la division du travail social», PUF, 1967.
- De Vos, 1980, «L'identité ethnique et le statut de minorité», in Identité collective et changements sociaux, sous la dir. de P. Tap, Ed. Privat 1980.
- Erikson, E., 1950. «Enfance et société», trad, franc,. delachaux – Niestle, 1976.
- Eriksou E., 1968, «Adolescence et crise: la quéte de l'identité», trad. franc., Flammarion, 1972.
- Goffman I., 1961, «Asiles», trad. franc., Ed. de Minuit, 1968.

— Goffman I., 1963, «La mise en scene de la vie quotidienne», 2 t., trad. franc., Ed. de Minuit, 1973.
— Gratiot – Alphandéry H.. Zazzo R., «Traité de psychologie de l'enfant», t.4 et 5: «Dévelopment affecit et moral et La formation de la personnalité», PUF, 1970.
— Gurvitch, 1950, «La vocation actuelle de la sociologie», PUF, 1950.
— Hall E. T., 1966, «La dimension chacée», trad. franc., Seuil, 1971.
— Heider F., 1958, «La perception d'autrui». in A. Lévy, Textes fondamentaux de psychologie sociale. Dunod, 1970.
— Janet P., 1937, «Les troubles de la personnalité sociale», in Annales médico psychologique, 2 – 3, juillet – octobre 1937.
— Kardiner A., 1939, «L'individu dans sa société», trad. franc., Gallimard, 1969.
— Lacan J., 1966, «Le stade du miroir comme formateur de la fonction du je», in Ecrits, Seuil, 1966.
— Laing R. D., 1960, «Le Moi divisé», trad. franc., Stock, 1970.
— Laing R. D., 1975, «Le concept de soi», PUF, 1975.
— Lemay, 1973, «Psycho – pathologie juvénile», 2t. Ed., Fleurus, 1977.
— Levi – Strauss C. «Séminarie dirigé par», 1977, L'identité, Grasset, 1977.
— Linton R., 1945, «Le fondement culture de la personalité», trad franc., Dunod, 1968.
— Lipovestky S., 1984, «L'ere du vide», Gallimard, 1948.
— Malrieu Ph., 1956, «La vie affective de l'enfant», Ed. du Scarabée, 1956.
— Mauss M., 1950, «Sciologie et anthropologie», PUF, 1960.
— Mead G. H., 1934, «L'esprit. le soi et la société», trad franc., PUF, 1963

- Michel M., 1980, «Bureaucratie, normalisation et idntité». Réflexions sur les variations culturelles des procédures d'indentifcation. in Identité collective et changements sociaux. sous la dir. de p. Tap, Privat, 1980.
- Mucchielle A., 1978, «Les mécanismes de défense sociale», thése d'Etat. Université René – Descrates Sorbonne. Paris IV, 1978. viduelles, Ed ESF et Libr tech., 1982.
- Oblak H., Soral A., Pasche A.. 1984, «Les mouvements de mode expliqués aux parents», Robert Laffont. 1984.
- Osterrieth P., 1966, «Faire des adults», Ed. Dessart, 1966.
- Packard, 1960, «Les obsédés du standing», trad, franc, Calmann – Lévy, 1965.
- Poirier J., 1978, «Alienation culturelle et hétréroculture», in Identités collectives et relations interculturelles, sous la dir. de G. Michaud, Ed. Complexes, 1978.
- Parsons T., 1950, «Eléments pour une sociologie de l'action», trad. franc., plon, 1955.
- Rocheblave – Spenlé A. – M., 1964, «Les roles masculines et féminins», Ed. Universitaires, 1970.
- Rougerie G., 1975, «Les cardes de vie», PUF, 1975.
  Sainsaulieu R., 1978, «L'identité au travail», Presses Nationales de la fondation politique, 1978.
- Scheler M., 1913, «Nature et formes de la sympathie», trad. franc., 1921, Payot.
- Spiz R. A. 1957, «De la naissance a la parole: la premiére année de la vie de l'enfant», trad. franc., Puf, 1974.
- Stéphane A., 1969, «L'unvers contestationnaire», Payot, 1969.
- Stoetzel J., 1963, «La psychologie sociale», flammarion, 1963.
- Tajfel H., 1972, «La catégorisation sociale», in S. Moscovici, Introduction a la psychologie sociale t. I, Ed. Larouse, 1972.

Tap P. (sous la dir. de), 1980, «Identité individualle et personnalisation», Privat, 1980.

- Tap P. «Identités collectives et changements sociaux»,

- Walzlawick P., 1978, «Le langage du changement», trad. franc., Seuil, 1980.
- Zavalloni M., 1972, «L'identité psychosociale, un concept à la recherche d'une science», in Introduction à la psycholigie sociale, t. 2, Larousse, 1972.

الفهرس

المقدمة : ١١

الفصل الأول : أسس الهوية

١ ــ مرجعيات الهوية........................... ١٥

٢ ــ نواة الهوية الثقافية........................ ٢٧

٣ ــ نواة الهوية الجمعية........................ ٣٨

٤ ــ نواة الهوية الفردية......................... ٤٢

٥ ــ التقمصات..................................... ٥٢

٦ ــ الاحساس بالهوية............................ ٦٨

الفصل الثاني : الهويات المختلفة

١ ــ وجهات نظر حول الهوية.................... ٩٧

٢ ــ الهوية الجمعية............................... ١٠٠

٣ ــ الهوية الفردية والهوية الاجتماعية.................... ١٠٩
٤ ــ هويات أخرى.............................. ١١٩

الفصل الثالث : مشكلات الهوية وأزماتها

١ ــ ديناميات الهوية وتكاملها.......................... ١٢٩
٢ ــ مشكلات الهوية................................ ١٣٣
٣ ــ استلابات الهوية................................ ١٤٧
٤ ــ ردود الفعل الدفاعية............................ ١٦٠

خلاصة عامة ١٦٩
بيبلوغرافيا

المترجم في سطور

الدكتور علي وطفة من مواليد دمشق ١٩٥٥ .

ـــ دكتوراه في علم الاجتماع التربوي من جامعة كانCaen فرنسا ١٩٨٨ .

ـــ مدرس في قسم أصول التربية في كلية التربية جامعة دمشق.

ـــ وكيل كلية التربية للشؤون الادارية وشؤون الطلاب سابقاً.

ـــ الأعمال العلميه:

ـــ كتاب علم الاجتماع التربوي .

ـــ التربية والمجتمع .

ـــ *أجرى بحوث أصيلة علمية ميدانية سوسيولوجة منها:*

ـــ *التحديات الاعلامية في جنوب سورية: دراسة سوسيولوجية.*

ـــ *التفاعل التربوي بين الطلاب وأعضاء الهيئة التدريسية: موازنة بين جامعتي دمشق والكويت.*

ـــ العلاقة التربوية بين الطفل والتلفزيون في سورية.

ـــ مواقف الشباب واتجاهاتهم نحو وسائل الاعلام: دراسة سوسيولوجية في محافظة دمشق.

ـــ الشباب والتلفزيون في سورية.

ـــ نشر مقالات عديدة في مجال التربية وعلم الاجتماع في دوريات عربية متعددة.

يتضمن هذا الكتاب معالجة علمية لمفهوم الهوية في جوانبه السيكولوجية والاجتماعية والثقافية.

ويرسم لنا في اطار هذه المعالجة مساقط نمو الهوية، ومكوناتها، ومحاور تفاعلاتها، وأسس تماسكها ووحدتها، ثم يبحث في امراضها وأزماتها وانشطاراتها واشكال استلابها. إنه يضعنا أمام لوحة معرفية متكاملة ترتسم فيها الهوية بنية ونمواً ومعاناة وذلك على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع والثقافة.

د. علي وطفة